الرحمة الهابطة في تحقيق الرابطة

للشيخ حسين الدوسري

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع لواء السُّنَّة السَّنِيَّة، وجدّد أمر المِلَّة المُحَمَّدية، وأيّد الشريعة الحنيفيّة، بظهور أهل المَزِيَّة، وبروز أهل الخصوصيّة، ووجود الطائفة المَهْدِيَّة، والزُّمرة التَّقيّة النقيّة، والتي بها تُغاث البَرِيّة، ويدفع عنها كل رَزِيَّة، وتَنْجُو بها من كل بَلِيَّة، أفاض الله على المسلمين برها، وغَمَر بها فاجر الأُمَّة وبِرّها، وجبر بها صدع القلوب وكسرها، أحمده على ما أَوْلَى من هذه النّعمة، وكشف الغُمَّة عن الأمّة، وأشهد أن لا إلـٰه إلّا الله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وبمِنّته تكون الباقيات، وبرحمته تُكْشَف البَلِيّات، وأشهد أن سيّدنا محمدًا عبده ورسوله مَنْبع العلوم الإلـٰهيّات، صلّى الله عليه وعلى آله سفينة النّجاة، وأصحابه أولي الدرجات، وسلّم تسليمًا في جميع الأوقات.

أما بعد؛ فهذه رسالة كنت قد أَلّفتها سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف ووَرّيْت نسبتها إلى غيري لغرض قصدته، والأعمال بالنيّات، وقد حصل ذلك الغرض ولله الحمد، وقد بدا لي أن أضيف إليها ما لم أُودعه فيها من كلام العلماء من غير تغيير وضعها السابق، مع تبيين من أردت بقولي فيها. أما بعد، فممّا مَنَّ الله عليّ في هذا السفر، وكان من موافقة القضاء والقدر النافذين مرورنا على بَنْدر البحرين واجتماعنا بجناب الفاضل الماجد الخاشع العابد الناصح الزاهد خليفة الشيخ خالد قَدّس الله سرّه، ومُرادي به شيخنا الشيخ إسماعيل، وذلك لأنّي حين خرجت من البصرة مررت به وهو في قرية خارج البصرة، وقد تقدم أمره إيّاي بالسفر، فلما أتيته للوداع أوصاني ببعض الوصايا، فلهذا قلت: وانتفاعنا بلفظه، واستماعنا لوَعْظه، واطّلاعنا على حقيقته، وإشرافنا على طريقته، فرأيناها الطريقة المُثْلى، والقول الذي لم يزل في كل العصور يُمْلَى، جامعة لحقائق الطرائق وخلاصات الحقائق ولا يُنْكِر منها حرفًا إلّا أحمق أو مُنافق.

قال إمامنا الشافعيّ رضي الله عنه: الإنكار فرعٌ من النّفاق، وذلك لأن المنافقين لو لم يُنْكِروا على رسول الله ﷺ لآمنوا به ظاهرًا وباطنًا، ولقد طرق سمعي بعض مقالات منقولة عن المُزَوّرين، وجهالات منسوبة إلى بعض المشهورين، وإنكار أمور عليها مدار العلماء العاملين، المتقدّمين منهم والمتأخرين، فوضعت رسالة مثبتة لما أنكروه ومبثّتة لما زوّروه، احتسابًا لوجه الله الأكرم وانتصارًا لاسم الله الأعظم، ونُصْحًا لأمّة محمد ﷺ، كَيْلا يقعوا في ورطة الإنكار، وكَيْلا يبقى الأخ المُنْكر على الإصرار، فيؤول به إلى دخول النار، لِمَا اشْتُهِر أنه يُخْشى عليه من سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، **وسمّيتها الرحمة الهابطة في ذكر اسم الذات والرابطة**، ورتّبتها على سبعة أبواب: الباب الأول في وصية الأخ البار، بمصاحبة الأخيار، ومجانبة الأشرار. الباب الثاني في النقل الموجب للذّات، في ذِكْر اسم الذات. الباب الثالث في تعريف رابطة أُولي الاجتباء، وثبوت الرابطة لكل إنسان شاء أو أبى. الباب الرابع في القول الأسْنَى، واستحباب الرابطة الحُسْنَى. الباب الخامس في قول أهل الاصطفاء، في رابطة المصطفى ﷺ. الباب السادس في القول المجمل، في رابطة الأولياء الكُمَّل. الباب السابع في نُصْح المُنْكرين الخاصّ والعام، لحصول حُسْن الختام. وجعلت الخطاب لواحد في جميع الأبواب رجاء أن يتوجّه إلى هذا الكلام بقلبه، وأن يُقْبل على رَبّه، ويستغفر من ذنبه، والله أسأل أن يمنّ على مَنْ تأمّلها بعين الإنصاف باتّباع الصواب، وأن يجعلنا وإياه ممن أناب، وأن يَهب لنا رضاه إنه الكريم الوهّاب.

الباب الأول

في وصية الأخ البارّ، بمصاحبة الأخيار، ومجانبة الأشرار

اعلم أيها الأخ بصّرني الله وإيّاك طريق الحقّ والهدى، وأزال من قلوبنا داء الحسد وجنّبنا الاعتدا. إنك في زمان دينِ أهله اتّباع الهوى، ورفض التقوى، وطيّ المَليح، ونَشْر القبيح، ووصل الطّلاح، وهجر الصّلاح، وإشاعة البهتان، وكِتْمان الإحسان، ومُجانبة من قال الله، ومُصاحبة من اتّخذ هواه، إذا ذُكّروا لا يَذْكرون، وإذا رأوْا آية يستسخرون، ويطنبون بالنّميمة وعلى الغيبة لا يقتصرون، وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ ثم لا يقصرون، يُبارز أمثلهم الملك القدير، كي يذكر عند الأمير والوزير، ويعمل ما يُوجب الخلود في النار، لكي يُمْدَح بين الفُجّار، فكره وذكره تكرير هات، وتقرير التّرهات وإضاعة الأوقات، والحِرْص على المُوبِقات، وبُغْض المُتّقين، ومحبّة الفاسقين، وإخفاء النصائح، وإبداع الفضائح، وإظهار الودّ، وإضمار الحِقد ونَزْع الحياء، والتقمّص بالرّياء، ونَفْي التواضع والبرّ، وإثبات العَجَب والكبر، إلى قوّال الزّور وإن كَثُر يَجْنَحون، وبه يَفْرحون، وعليه ما يبرحون، وعن ذكر الله وإنْ قَلّ يَجْمَحون، وإذا سَمِعوه يَكْلَحون، وعلى فاعله يَقْدَحون؛ فلا جَرْم أنهم بالخطأ قائلون، وعن الصّواب عادلون، وإلى المراء مائِلون، وعلى الافتراء حاصلون؛ إذ هم رحلوا عن نوادي العدل وفي بوادي الجَهْل هم نازِلون، فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون، قلوبهم بحبّ الفساد مَشْغُوفة، وعلى كَسْب مال العباد مَلْهوفة، وعن ذِكْر ربِّهم مَصْروفة، يبذل أحدهم في الجهالات والضّلالات والتخليطات والتخبيطات جميع قواه، ويُعْرِضُ عن ذكر ربّه بائعًا دينه بأقلّ من نواة، ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه، إن أطَلْت بالغيبة لسانك، وأصْغَيْت لها آذانك، عَظّموا حين رؤيتهم لك شأنك، ورفعوا مكانك، وإذا غِبْت عنهم أظهروا عداوتك، وقرّروا بُهْتانك، فلا مَليحك شيّعوه، ولا قَبيحك

يَدعوه، قلوبهم مملوءة حسدًا، كأنهم لم يروا الحشر غدًا، أكثرهم طوى بساط الهدى، كأنهم خلقوا سدًى، ولا يزالون في قال وقيل، ومن لم يوافقهم يرمونه بالأباطيل، فمِنَ التعطيل أن نحن بذكرهم نُطيل، فلا حاجة إلى التطويل، وما أبَرِّىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي، والاعتراف بالاقتراف والتوبة إن شاء الله تعالى دَأْبي، والرَّجاء وحسن الظنّ بالله حَسْبي، رحم الله الشيخ القويّ حيث يقول: **أشعار:**

فـؤادٌ لا يُـقِـرّ لـه قَـرار ... وأجـفـانٌ مـدامِـعُـهـا غِـزار
ولـيـلٌ طـال بـالأفـكـار حـتـى ... ظَنَنْتُ اللَّيل لـيس لـه نـهـار
ولِمَ لا والـتُّـقـى حُـلّت عُـراه ... وبـان عـلـى بَـنِـيـه الانـكـسـار
لِيَبْكِ معي على الدِّين البَوَاكي ... فـقـد أضْـحَـت مـواطِـنـهُ قِـفَـار
وأضْـحَـى لا تُـقـام لـه حـدود ... وأمـسـى لا يـبـيـن لـه شـعـار
وعـاد كـمـا بـدا فـيـنـا غـريـبًا ... هـنالك ما له في الخلق جار
فقد نَقَضُوا عُهُودهم جِهارًا ... أسـروا بـالـعـداوة ثـم سـاروا

فعليك يا أخي بحُسْن الاعتقاد وسلوك سبيل الرّشاد، ولا يغرّك تخبيط أهل العناد، قال الفضيل: اتّبع طرق الهدى ولا يضرّك قلّة السالكين، وإياك وطرق الضلال، ولا تغترّ بكثرة الهالكين؛ وذلك أنه لا تَزِر وازرة وِزْر أخرى، وعن قريب تجتمع الخلائق في الأخرى، ويمتاز الذين ظلموا والذين لهم البشرى؛ فعليك بصحبة من ينهضك حاله، ويدلّك على الله مقاله، واهتدِ بمقال أفضل مرسل صدق مقاله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم ما نوّر الأفق كوكب الفلك وهلاله: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السّوء كحامل المِسْك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**»[1]، وقوله ﷺ: «**خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله**»[2]، وهذان الحديثان يصلحان أن

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في بابين: أحدهما باب بيع السلاح في الفتنة وغيرهما. . .، حديث رقم (1995) [2/ 741]؛ ومسلم في صحيحه، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء. . .، حديث رقم (1995) [2/ 741]؛ ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير، باب حديث رقم (10476) [10/ 205]؛ وأحمد في المسند، =

يكونا دليلاً للتوجّه والرابطة؛ لأن من ألفاظهما ومعانيهما ما هو مُطابقٌ للواقع، كما أنهما يرغبان في صُحْبة الصالحين، فإنه ﷺ شبّه الصالح بحال المسك، ثم ذكر أنه يحصل من مجالسته إحدى ثلاث فوائد: واحدة مقطوعٌ بها، وهي وجدان الريح؛ إذ لا مانع فقال: إما أن يحذيك، أي يعطيك بلا عوض، والعطا هنا إما إفادة عِلْم بلا سؤال، وإما إفادة حال بتوجّه من ذي كمال، قيل: ونظرة منه إن صحّت إليه على سبيل ودّ بإذن الله تغنيه.

وأما قوله: فإما أن تبتاع منه، أي تسأله فيجيبك بما ينفعك، هذا من حيث اللّسان، أو تستمدّ منه فيُمِدّك بروحانيّته، وهذا من حيث الجِنان. وقد يجمع بينهما، وهذا الأخذ والإعطاء الروحاني عند أهله مُدْرك بالوجدان كالمحسوس، فإنكار من لم يسلك سبيلهم لا يُلْتفت إليه؛ إذ لا يستوي الأعمى والبصير، كما لا يستوي المِسْك والكير وأنّى للأبكم الفصاحة وحسن التقرير.

وأما قوله: وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، أي يسري إليك من حاله ما تنتفع به، وهذه الجملة مُطابقة ظاهرًا لفعل التوجّه من وجه؛ إذ هو انعكاس حاصل ما يفعل تارة من غير استدعاء، وإليه الإشارة بإما أن يحذيك، وتارة بالاستدعاء والفعل، وإليه الإشارة بتبتاع منه، وتارة انعكاس من غير استدعاء ولا فعل، وإليه الإشارة بتجد منه ريحًا طيّبة عبّر بالوجدان دون غيره من الألفاظ؛ لأن الجليس يُدرك بذوقه ما يَسْري إليه من قلب جليسه الصالح، وإذا كانت الطباع تسرق فمن باب الأولى أن القلوب المُنيرة تسرق وتحصل الفائدة من الجليس الصامت، ولا معنى لها سوى سَريان حاله في جليسه، ومن المعلوم أنَّ من جالس شخصًا، سيّما إذا كان الجلوس على طريق المحبة والاعتقاد، لا بدّ أن تُرْسَم صورته في ذهنه، فمهما تُذَكّره تخيّل صورته، فإن كان الشخص من أحباب الله فتخيل صورته يدعو إلى محبّته والشوق إليه ومحبّته مطلوبة والشوق إليه محبوب، فتخيّل صورته محبوب؛ إذ من تَصَوّر موصوفًا تصوّر صفاته، فإذا كانت صفاته محبوبة عند الله فتصوّره المُوجب لتصوّر صفاته المحبوبة محبوب، ولا معنى للرابطة سوى هذا، ولا يرتاب عاقل في أن الإنسان مختارٌ في حركاته

= حديث رقم (27640) [6/ 459]؛ ورواه غيرهما.

الظاهرة وتصوّراته الباطنة؛ إذ لا حجر عليه من جهة الشّارع، إلّا إن تحرّك في معصية أو إلى معصية، وكذا إن تصوّر فعل معصية كمن يتصوّر أنه يزني، فهذا محظور بخلاف من تصوّر أنه يأتي حرثه فلا مانع من ذلك، وأن قوله ﷺ: **«خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله»**[1]، فهذا كالشرح لقوله: **«أو تجد منه ريحًا طيبة»**[2]، جعل مُجرّد رؤيتهم مُحصّلة لذكر الله؛ وذلك لأنهم منسوبون إلى ذكر الله، وإذا رأى المنسوب ذُكِرَ المنسوب إليه، وهو عين الذّكر؛ لا سيّما إذا كانت رؤيتهم على طريق المحبّة والاعتقاد الصحيح، فإنه يحصل بها رَفْع الحِجاب عن القَلْب، فينتقش فيه ذكر الله، فإن كانت رؤية مع مجالسة، فهذه أبلغ من حصول الذّكر بسبب انعكاس أنوار القلوب.

ولتتيقّن يا أخي وتَجْزم بأني لم أذكر لك جميع ذلك عن ظنّ وتخمين، لا والذي وَسِعَتْ رحمته كل شيء، بل عن تجربة وتحقيق والشفيق يجتهد في النصيحة، فقل لمن لم يسلك هذا السبيل، ولم يَذُقْ من شرابه السلسبيل، على نفسه فَلْيَبْكِ من ضاع عُمْره، وليس له فيها نصيب ولا سَهْم.

والحاصل أن صحبة الصالحين مُحْتاجٌ إليها وقد قالوا: الرفيق قبل الطريق، وتطهير القلب عن الصّفات المذمومة كالكبر والعجب والرّياء ومحبّة الدنيا ونحوها فرض على كل مسلم بإجماع العلماء؛ لأن جميع الطاعات يترتّب وجودها والإحسان فيها على تطهير القلب، ويكفيك قوله ﷺ: **«إن في الجسد لمُضْغَة إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسد كلّه»**[3] الحديث، وتطهير القلب لا يحصل على الوجه المراد إلّا بصحبة مرشد كامل، وتأمّل عهود الشعراني الكُبْرى يتحقّق عندك صحة هذا القول.

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير، باب حديث رقم (10476) [10/ 205]؛ وأحمد في المسند، حديث رقم (27640) [6/ 459]؛ ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه في بابين: أحدهما باب بيع السلاح في الفتنة وغيرهما. . .، حديث رقم (1995) [2/ 741]؛ ومسلم في صحيحه، باب استحباب طَلاقَة الوجه عند اللقاء. . .، حديث رقم (1995) [2/ 741]؛ ورواه غيرهما.

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب فضل مَن استبرأ لدينه، حديث رقم (52) [1/ 28]؛ ورواه مسلم في صحيحه (20 باب أخذ الحلال وترك الشُّبُهات) حديث رقم (1599) [3/ 1219]؛ ورواه غيرهما.

قال الحبيب سيدي عبد الله باعلوي الحداد: عليكم بصحبة الأخيار والتأدّب بآدابهم مع التعظيم البالغ لهم وحُسْن الظنّ الصادق فيهم، فإنما قلّ انتفاع أهل الزمان بالصالحين من حيث قلّة التعظيم لهم وضُعْف الظنّ بهم، فحُرِمُوا بسبب ذلك بركاتهم، ولم يُشاهِدوا كراماتهم حتى توهّموا أن الزمان خالٍ من الأولياء، وهم بحمد الله كثيرون ظاهرون ومختفيّون، وذلك لأن ظهورهم في كل زمان لا بدّ منه، ومن اعتقد غير ذلك يُخْشَى عليه تكذيب النبيّ عليه السلام، فإنه قال: «**لا تزال طائفة من أُمّتي ظاهرين على الحقّ حتى تقوم الساعة**»[1]، وصَفَهم بالظهور وهو شامل كالغلبة والنصرة، فاعتقاد خلافه مهجور أو محظور.

فإن قيل: المراد بالطائفة أهل السنّة، وهم ظاهرون، ولله الحمد. **فيقال**: لا شكّ أنّ مذهب السنّة هو الحقّ، وأن أهل السنّة بالنسبة إلى فرق هذه الأمّة هم الطائفة لكن للحقّ شروط لا يتمّ إلّا بها، وليس كل فرد من أهل السنّة جامع الشروط، فخواصّ أهل السنّة بالنسبة إلى عوامّهم هم الطائفة، ومنهم المجتهدون في الأحكام والعقائد الدينية والمُجاهدون لإعلاء كلمة الله.

فإن قيل: بل المراد بالطائفة أهل العلم من الفقهاء والمُدَرّسين من أهل السنّة. **فيقال**: وهذا حقٌ أيضًا، وهل الطائفة المُحِقّة المَهْدِيّة إلّا أهل العلم؟ لكن إنْ كان هذا الفقيه المُدَرّس عَدْلاً جامعًا لشروط الإسلام فَضْلاً عن الإيمان، فَضْلاً عن الإحسان، والمُسْلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، مع أن هذه المقامات التي وردت بها الشريعة لا يكون العبد مُحِقًّا ظاهرًا وباطنًا حتى يتّصف بها.

وأما الفقهاء والمدرّسون الذين يقرؤون درس الغيبة ويقرّرون مسائل الرِّيْبة ويقعون في الأخيار، ويزدرون بالفقراء ويتذلّلون للجَهَلة والحمقى من الأغنياء والتجار، وكادوا يعبدون الأمراء مع ما يُشاهَد من أَكْلِهم الحرام والكبر والعجب والترفّع على الأنام، فهؤلاء فَسَقَة الأنام، وقد تَعْرِف الفَسَقة جملة من العلوم

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «لا تزال...»، حديث رقم (6881) [6/ 2667]؛ ومسلم في صحيحه في أبواب عدّة منها باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي...»، حديث رقم (1920) [3/ 1523]؛ ورواه غيرهما.

والأحكام، وهم أقبح حالاً من العوامّ، وأين هم وأين الطائفة الظاهرة على الحقّ على الدوام؟ وإنما المراد بالطائفة العدول من العلماء العاملين والمشائخ الكاملين الذين يَصْدُق عليهم قوله ﷺ: **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المُبْطِلين»**[(1)]، فهذا الحديث مُصَرِّح بأن العدول يحملونه لأن غيرهم لا يعرف منه شيئًا، والعدول بالظاهر والباطن الظاهرون اليوم كالمُرْشد الكامل العالم العامل العارف الماجد الشيخ خالد والأكابر من أتباعه وأُناس من الحَرمين وبغداد واليمن نعرفهم، والله أعلم بعباده وبلاده، ومن لا نعرفهم أكثر؛ فهؤلاء على هُدًى من ربِّهم والسعيد من كان من حِزْبهم.

أما الشيخ خالد، فلِمَا هو مُشاهَد من علوّ همّته وعدم مُبالاته بما سِوَى الله من مُلْك وغيره وجميل مروءته وحُسْن خِلْقته وغزارة عِلْمه وإتقانه العلوم العقلية وتبحّره خصوصًا في العلوم الشرعيّة، كما أنه وِعَاء العلوم اللّدنيّة وما يجري لأتباعه وأتباع أتباعه من الأحوال السَّنِيَّة والكُشوف الإلـهيّة والأذواق والمواجيد وغيره ذلك مما رأيناه ووجدناه وشهِدْناه.

وقد أشَرْت منه إلى جُمَل في الأساور العَسْجديّة لا يُدْرِك معانيها إلّا مَن له قلب، ومن ذلك عظيم شفقته ورأفته بالمسلمين واعتنائه بأمّة محمد ﷺ الذي حمله على أن وجّه إلى كل قطر قطرًا يحيي به أموات القلوب، وإلى كل أُفق بدرًا يهدي به إلى المطلوب، فيا لها من نِعْمة يجب شكرها على المسلمين، وكُفْرها لا يكون إلّا من ضعيف الدِّين عديم اليقين، ليس هو من المُتّقين، فإن المُتّقي ما تحمله النفس على الحسد، ولا يؤول به اتّباع الهوى إلى جحود فضل أهل التّقْوى.

وأما أكابر أتباعه، فلِمَا شَهِدنا من بعضهم الذين رأيناهم من العمل بالعلم والنصيحة والتعليم وحُسْن السِّيرة وإخلاص السَّريرة التي يدلّ عليها عدم التفاتهم إلى الخلق إلّا لنفعهم واعتمادهم على الحقّ في خفضهم ورفعهم واستغراقهم

---

(1) رواه الطبراني في مسند الشاميين، عن علي بن مسلم البكري، حديث رقم (599) [1/ 344]؛ وتمام الرازي في فوائده، الجزء الرابع عشر من فوائد تمام، حديث رقم (899) [1/ 350].

في العبادة وانهماكهم فيما يُوجب لهم السّعادة، فلا شكّ أنهم من خلاصة الطائفة المذكورة، ومخّ من ذكرهم الله من آية سورة، فعليك يا أخي بمحبّة هذه الطائفة وصحبتهم وخدمتهم والانتساب إليهم، فإنهم قوم لا يشقى جليسهم، فكيف محسوبهم!! وفّقني الله وإيّاك وهو أكرم الأكرمين.

الباب الثاني

في النقل الموجب للذات، في ذكر اسم الذات

اعلم أيها الأخ شغلني الله وإياك بذكر اسمه الأعظم أن أكثر العلماء بالله وأجلّهم نصيبًا من الله وأجملهم شهودًا لله وأفضلهم صحوًا مع الله وأمْثَلهم مَحْوًا في محبّة الله الذين تكون بدايتهم الله ونهايتهم الله، وعلى ذلك أكثر العارفين من المتقدّمين والمتأخّرين، قال الله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [المُزمّل: الآية 8]، واسمه الجامع الله، وهو علم [على] الذات الواجب الوجود لذاته، قال ثعلب: اسم مفرد فيه توحيد مُجَرّد، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91].

فإن قيل: هذا لا دلالة فيه؛ لأنه نزل ردًّا على من قال: ما أنزل الله على بشر من شيءٍ، فلمّا أُلْزِم بكتاب موسى، فلم يجب قيل له: قل هذا الجواب إن لم يقله، فيقال: ما يلزم من كونه ردًّا أنه غير متعبّد به، فإن قولنا أيضًا: لا إلـٰه إلّا الله ردٌّ على من جعل مع الله إلـٰهًا آخر، فهما سيّان.

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض الله الله»**(1)، وفي رواية: **«لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله»**(1)، فهذا الحديث مُصَرّح بأن الله الله من الأقوال التي تقال، وأنه إذا انْصَرم الزّمان لم يَبْقَ أحدٌ يذكر الله بهذا القول، وحديث: «تقوم الساعة» فكلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله ﷺ فيهما الهداية للمُوَفّق العامل بهذا الذِّكر والكفاية للمشكك المنصف والنكاية للمتعصّب المتصلّف.

وأما كلام العلماء المُحَقّقين الجامعين بين الفقه وغيره من العلوم الشرعيّة، فقد قال الإمام حُجّة الإسلام الغزالي في الإحياء في كتاب رياضة النفس عند

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، حديث رقم (148) [1/ 131]؛ وأبو عوانة في مسنده، بيان أن الساعة لا تقوم...، حديث رقم (293) [1/ 94]؛ ورواه غيرهما.

ذكر فوائد الخلوة: وعند ذلك يلقّنه، أي يلقّن الشيخ المُرِيد ذكرًا من الأذكار حتى يشتغل به لسانه وقلبه فيجلس مثلاً ويقول: الله الله أو سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات، انتهى. قال الإمام الحبر الجليل النواوي الذي قال فيه التقيّ السبكي: شعر:

وفي دار الحديث لطيفُ مَعْنًى أصلّي في جوانبه وآوي
لعلّي أن أنال بحر وَجْهي تُرابًا مَسّه قدم النواوي

في حزبه المشهور: الله الله الله ربّي لا أشرك به شيئًا، الله الله الله ربّي لا إله إلّا الله، انتهى.

والكلام على كونه مفردًا أو جملة يأتي إن شاء الله، وقال الإمام الكبير الفخر الرازي في كتابه «أسرار التنزيل»: وأما الذين اكتفوا في النهايات بكلمة الله فلهم فيه وجوه:

الحجّة الأولى: أن نفي العيب عمّن يستحيل عليه العيب عيب.

الحجّة الثانية: أن من قال لا إله إلّا الله فلعلّه حين ذكر كلمة النفي لا يجد من المهلة ما يصل منه إلى الإثبات، ويبقى في النفي غير منتقل إلى الإثبات، وفي الجحود غير منتقل إلى الإقرار.

الحجّة الثالثة: إن المواصلة على هذه الكلمة متشعّبة بتعظيم الحقّ والاشتغال بنفي الأغيار يرجع في الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار، وذلك يمنع من الاستغراق في نور التوحيد، فمن قال لا إله إلّا الله فهو مشتغل بغير الحقّ، ومن قال الله فهو مشتغل بالحقّ، فأين أحد المقامين من الآخر؟

الحجّة الرابعة: إن نفي الشيء إنما يُحْتاج إليه عند خطران ذلك بالبال وخطور شريك الله بالبال لا يكون إلّا لنقصان في الحال، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك امتنع أن نُكلّفهم بنفي الشريك، بل هؤلاء لا يخطر ببالهم ولا في خيالهم إلّا ذكر الله؛ فلا جَرَم يكفيهم أن يقولوا الله. الحجّة الخامسة: قال الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91] فأمره بذكره ومَنَعَه من الخوض معهم في أباطيلهم ولعبهم، والقول بالشريك من

الأباطيل، ففيه خوض في ذلك الكلام، وكان الأَوْلى الاقتصار على قولنا: الله، انتهى.

وقال الجهبذ المنور والعَلامة المصدر والنحرير المشتهر الشيخ شهاب بن حجر في الفتاوى الصغرى: وذكر لا إلـه إلّا الله أفضل من ذكر الجلالة مطلقًا.

هذا بلسان أئمة الظاهر. أما عند أهل الباطن، فالحال يختلف بأحوال السالك، فمن هو في ابتداء أمره ومقاساته لشهود الأغيار وعدم انفكاكه عن التعلّق بها وعن إرادته وشهواته وبقائه مع نفسه يحتاج إلى إدمان الإثبات بعد النَّفْي حتى يستولي عليه سلطان الذكر وجواذب الحقّ المترتّبة على ذلك، فإذا استولت عليه تلك الجواذب حتى أخرجته من شهواته وإرادته وحظوظه وجميع أغراض نفسه صار بعيدًا عن شهود الأغيار، واستولى عليه مراقبة الحقّ وشهوده، فحيث يكون مستغرقًا في حقائق الجمع الأحدي والشهود السَّرْمدي الفردي، فالأنسب لحاله الإعراض عمّا يذكر بالأغيار واستغراقه فيما يناسب حاله من ذكر الجلالة فقط؛ لأن ذلك فيه تمام لذاته وتمام مسرّته ونِعْمَته ومنتهى إرْبِهِ ومحبّته، بل لو أراد قهر نفسه إلى الرجوع إلى شهود غيره حتى ينفيه أو تعلق به خاطره لم تطاوعه نفسه المطمئنّة لما شاهدت من الحقائق الوهبية والمعارف الذوقية والعوارف اللَّدنيّة.

وقد فتحنا لك بابًا تستدلّ بما ذكرناه في فتحه على ما وراه، فافهم مقاصد القوم السالمين من كل محذور ولَوْم وسَلِّم لهم تَسْلم، ولا تنتقد حقيقةً من حقائقهم تندم، بل قُلْ فيما لم يظهر لك، والله أعلم، انتهى.

وقال العلّامة عبد الرؤوف المناوي في شرحه الكبير على الجامع الصغير في شرح قوله ﷺ: «**اذكر الله فإنه عونٌ لك على ما تطلب**»[1]، قال: اذكر الله بالقلب بأن تقول لا إلـه إلّا الله مع إخلاص، والذِّكر ثلاث: نفي وإثبات وإثبات بغير نفي، وإشارة بغير تعرّض لنفي ولا إثبات؛ فالأول قول لا إلـه إلّا الله

---

(1) أورد السيوطي في الدرّ المنثور وعَزاه إلى ابن عساكر، سورة الأنفال، الآية (45) [4/ 75].

والذّكر به قوام كل جسد وموافق لمزاج كل أحد، الثاني اسمه الشريف الجامع وهو الله اسم جلال محرق ليس كل أحد يطيق الذكر به، والثالث ذكر الإشارة وهو هو، فدوام ذكر لا إلـه إلّا الله سبب لليقظة من الغفلة، وذكر الله سبب للخروج عن اليقظة في الذّكر إلى وجود الحضور مع المذكور، وذكر هو هو سبب للخروج عن ما سوى المذكور.

وقال أيضًا في شرح قوله ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن يحبّ الله ورسوله فليقرأ القرآن»[1]، قال: نظرًا في المصحف، ثم قال بعد كلام: كان بعض المشائخ الصوفية إذا سلك مريدًا أشغله بذكر الجلالة وكتبها له في كفّه وأمره بالنظر إليها حالَ الذّكر، قالوا: هذا أوّل شيء يرفع، كما قاله عبادة بن الصامت، ويبقى بعده على اللّسان حجّة فيتهاون الناس فيه حتي يذهب بذهاب جملته، ثم تقوم الساعة على شِرار الناس ليس فيهم من يقول الله الله.

وأما كلام المحقّقين من الصوفية الجامعين بين العلم الظاهر والباطن، فقد قال الشيخ العارف أحمد الغزالي أخو حجة الإسلام في رسالته «التجريد في كلمة التوحيد»: اعلم أن السالك له ثلاث منازل، فالمنزل الأول: عالم الفناء، والمنزل الثاني: عالم الجَذْبة، والمنزل الثالث: عالم القبضة، فاجعل ذكرك في عالم الفناء: لا إلـه إلّا الله، وفي الجذبة: الله الله، وفي عالم القبضة هو هو، انتهى باختصار.

وقال الشيخ عفيف الدين التّلمساني في كتابه «الكبريت الأحمر»: العارفون على أن أفضل العبادات حفظ الأنفاس مع الله، ويكون دخولها وخروجها بذكر الجلالة، وهو قولك: الله الله ولا إلـه إلّا الله، وهو الذّكر الخفيّ الذي لا تتحرّك به الشّفتان، انتهى.

وقال العارف بالله الشيخ عبد السلام بن مشيش في آخر صلاته على النبيّ عليه السلام الصلاة المشهورة: الله الله إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك

---

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لديّ من مصادر ومراجع والذي ورد قوله ﷺ: «إذا أحبّ أحدكم أن يحدّث ربّه فليقرأ القرآن»، رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (1195) [302/1].

إلى معاد، انتهى. وقال ابن عطاء الله الشاذلي في كتابه «مفتاح الفلاح»: الذكر الرابع: الله ويسمّى المفرد لأن ذاكره مشاهد لجلال الله وعَظَمَته، قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91]، وقال في باب ذكر الخلوة منه: وليكن ذكرك الاسم الجامع وهو الله، واحذر أن يفوه به لسانك، ولْيَكن القلب هو القائل والأذن مصغية لهذا الذِّكر حتى ينبعث الناطق في سرّك، فإذا أحسست بظهور الناطق فيك بالذكر فلا تترك حالتك التي كنت عليها، انتهى.

وقال الإمام العارف الشيخ عبد الوهاب الشعراني في العهود الصغرى: أخذ علينا العهد أن لا يمضي علينا يوم ولا ليلة حتى نذكر الله عزّ وجلّ بتكرير الجلالة أربعًا وعشرين ألف مرّة عدد الأنفاس الواقعة في الثلاث مائة وستين درجة. اهـ. وقال العارف الشيخ يوسف الكوراني في قوله ﷺ: «**موتوا قبل أن تموتوا**»[1]: وظاهر صفات الميت أن لا يرى ولا يتكلّم ولا يتحرّك ولا يعجز أحد أن يُغْمِض عينيه ويَسْكن ويسكت مقدار ثلاثة أنفاس أو مقدار استطاعته، فقد قال ﷺ: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[2]، فإذا فعل ذلك فقد مات وأتى باستطاعته في ظاهره، فإذا أضاف عليه الله الله بالقلب دون اللّسان، فقد شارك الخاصّ بالقدم، وأنه جعل ذلك مرجعه في كل ما وجد فراغه صار من السالكين الخواص على قدر أُنسه بالله لله، وعلى قدر ثباته فيه يكون من الفائزين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ونَقْل جميع ما ورد من كلام العلماء في ذكر الجلالة أمرٌ مُتَعَسّر جدًّا، بل متعذّر؛ إذ يحتاج إلى صرف زمان وتتبّع جميع الكتب التفسيرية والحديثية والصوفية، والكتب في هذه الفنون لا حَصْر لها، فمن المستحيل الوقوف عليها، ومن لا يكتفي بإمام واحد من هؤلاء الأئمّة لا خير فيه، وقضية الشِّبْلي

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2669) [2/ 384]؛ والهروي في المصنوع [1/ 371].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الاقتداء بسُنن رسول الله ﷺ...، حديث رقم (6858) [6/ 2658]؛ ومسلم في صحيحه، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (1337) [2/ 975]؛ ورواه غيرهما.

المشهورة لا تُخفَى على مَنْ هو له مطالعة في سِيَر الصالحين ذكرها غير واحد منهم الفخر الرازي في «أسرار التنزيل»، ومنهم ابن عطاء الله في «مفتاح الفلاح»: أن رجلاً سأل الشبلي: لِمَ تقول: الله ولا تقول لا إلـه إلّا الله؟ فقال: إن الصِّدّيق أعطى ماله فلم يُبْقِ معه شيء، فتخلّل بالكساء بين يدي النبيّ ﷺ، فقال له: وما خلّيت لعيالك؟ فقال: الله، فكذا أنا أقول: الله، فقال السائل: أريد أعلى من هذا، فقال الشّبلي: أستحي من ذكر كلمة النَّفْي في حضرته والكل نوره، قال السائل: أريد أعلى من هذا، فقال الشِّبْلي: أخاف أن أموت على الإنكار، فلا أصل إلى الإقرار، فقال السائل: أريد أعلى من هذا، فقال الشّبلي: قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91]، فقام السائل فزعق زعقة فقال الشِّبْلي: الله، فزعق ثانيًا، فقال الشِّبْلي: الله، فزعق ثالثًا ومات، فاجتمع أقارب الفتى وتعلّقوا بالشِّبْلي وادّعوا عليه الدم وحملوه إلى الخليفة، فأذن لهم فدخلوا عليه وادّعوا الدم، فقال الخليفة للشبلي: ما جوابك؟ فقال: رُوحٌ حَنَّت فَرَنَّت وسَمَتْ فصاحت ودُعِيَتْ فسَمِعَت فَعَلِمَت فأجابَتْ، فما ذنبي؟ فصاح الخليفة: خَلُّوا سبيله، ونظير هذا السؤال ما ذكره الشيخ الأكبر محيي الدين في الفتوحات أنه سأل أحد شيوخه: لِمَ تقولون الله ولا تقولون لا إلـه إلّا الله؟ فقال: ما سمعت ولا رأيت أحدًا يقول: أنا الله غير الله، فأنا أقول كما يقول الله، انتهى.

وهٰهنا عبارة جميلة ينبغي أن نوقفك عليها لنعلم كيف اعتناء العلماء بهذا الذّكر. قال القاضي عياض في متن الشفاء في وصف أولياء الله اللاهجين بصادق قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91]، قال الشارح الخفاجي: يعني أن هؤلاء المخلصين لله المُخْتَصّين به الذين شغلوا ظاهرهم وباطنهم بمحبّته وردهم دائمًا ذكر الله والإعراض عمّا سواه متمثّلين بهذه الآية ومقصود المصنف التمثل بها تمثل الشبلي لمن قال له: أوصني، فقال: عليك بالله ودَعْ ما سواه، وكُنْ معه وذَرْهُم في خوضهم يلعبون، ثم قال: وهٰهنا بحث وهو أنه قيل: إن ذكر الله بتكرير لفظ الجلالة بدعة لا ثواب فيها. قال الخطاب في شرح مختصر الشيخ خليل: سُئِل العِزّ بن عبد السلام عمّن يقول الله الله مقتصرًا على ذلك، هل هو مثل سبحان الله ونحوه؟ فأجاب

بأنه بدعة لم يُنْقَل مثله عن أحد من السَّلف والذكر المشروع لا بُدّ فيه من أن يكون جملة مفيدة والاتّباع خير من الابتداع ونحوه ما أفتاه البلقيني في قوم لا يزالون يقولون: مُحَمّد مُحَمّد كثيرًا، ثم يقولون: مُكَرّم مُعَظّم، فأجاب بأنه ترك أدب وبدعة لم تُنْقَل.

قال الخفاجي: أقول: ما ذكره في اسم النبيّ ﷺ من كونه بِدْعَة ظاهر لأنّه مع كونه لم يتعبّد بمثله داخل فيما نهى عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: الآية 63]. وأما ذكر الله فقد ورد الأمر به ووعد ذاكره بالثواب في آيات وأحاديث لا تُحْصَى؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: الآية 35]، وفي الحديث القدسي: **«من شَغَلَهُ ذِكْرِي عن مَسْألتي أعطيته أفضل ما أُعْطِي السائلين»**[1] إلى غير ذلك، ولم يقيّد بقيد على أن الذاكر قصده التعظيم والتوحيد، فهو إذا قال الله ملاحظًا لمعناه، فكأنه قال: معبودي واجب الوجود مستحقّ لجميع المحامد، ولم يزل العلماء والصُلَحاء يفعلونه من غير نكير، وكان الأستاذ البكري يفعله ويقول بعده: أستغفر الله مما سوى الله وكل شيء يقول الله، وفي مجلسه أجِلّة العلماء والمشائخ، وهذا هو الحقّ، وقد صنّف في رَدّ مقالة ابن عبد السلام هذه عدّة رسائل رأيناها، وممن صنّف فيها القطب القسطلاني والعارف بالله المرصفي والشيخ عبد الكريم الخلوتي، وبه أفتى من عاصرناه، اللّهمّ احشرنا في زُمْرة الذّاكرين ولا تجعلنا من الغافلين، انتهى.

فيكفي ما أوردناه من كلام الخفاجي مع أن الشيخ عبد الوهاب الشعراني ذكر أن العزّ بن عبد السلام سُئِل: أيّما أفضل أو أَوْلى للذاكر الاشتغال بذكر الجلالة، أو لا إلـه إلّا الله، فأجاب: بأن لا إلـه إلّا الله أفضل للمبتدىء، والجلالة أفضل للمنتهي، انتهى. على أنّا لا نسلم قول الله مفردًا، وإنما هو جملة فعلية لأنه منادى، وياء النداء المحذوفة نائبة مَنَاب الفعل فلا شبهة عليك إنْ كنت جاهلاً، وإنْ كنت عاقلاً فاكْتَفِ بكلام واحد من هؤلاء الأئمّة، فاسمع أَسْمَعَك الربّ قول الله من داخل القلب، ولا جعلك ممن يتعصّب فيحجب قول

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، (378 مَن شغله ذِكري...) حديث رقم (584) [1/340]؛ والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (572) [1/413]؛ ورواه غيرهما.

بعض المتوجّهين إلى الله بلّغه ربّه ما يتمنّاه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أشعار:

إن الشياطين أنواعٌ مُنَوَّعة ... منها الموسوس والآتي بتلبيس
وَشَرّها من كمثل الناس صورته ... فرخ الرَّجيم أخو الأغوى بتأسيس
إن قلت الله قال احذر تقله فذا ... لا فضل فيه فقل مه ضنأ جغموس
اذكر قل الله واحذر أن تميل إلى ... قول الغويّ وتلبيسٌ لإبليس
شَرْحُ الخفاجي يَنْفي كل وسوسة ... فلا تبالِ بوسواس بن طعموس
واتْلُ العهود ومفتاح الفلاح كذا ... شرح المناوي واهجر كل دعبوس
هو الغبيّ الجهول وهو ذو حمق ... يصغي إلى كل ذي زور وتدليس
من الغزالي والرازي والنووي ... والشاذلي الألى من كل أريس
والقسطلاني والبكري قدوته ... من ذا يخالفهم من أجل جعسوس
أتنكرون علينا أن نقلّدهم ... يا شيعة الإفك كلاّ زُمْرة السوس
يا ويح قوم بغوا والبغي مهلكهم ... على كرام أُولي ذكر وتقديس
الله الله قبح فيه عندكم ... الله أكبر يا غارات قدوس

فعليك يا أخي بالإقبال على الله والاشتغال بذكر الله خصوصًا بهذا الاسم الأعظم الذي حصل به الفضل للا إله أو الله، فلو قالها مكلّف ولم يتمّها به كفر، فلا تطع من أنكر وعن الحقّ استكبر، فتقول حين تُقْبَر وتُحْشَر ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: الآيتان 28، 29]، وفّقني الله وإيّاك للإقبال عليه بالذكر الموجب للفوز لديه.

الباب الثالث

في تعريف رابطة أُولي الاجتبا، وثبوت الرابطة لكل إنسان، شاء أو أبى

اعلم أيّها الأخ وفقك الله لسلوك الصراط المستقيم وعصمني وإيّاك من الشيطان الرجيم، أن الرابطة عبارة عن تعلّق القلب بشيء لشيءٍ على وجه المحبّة، وهذا التعلّق تارة يكون محمودًا، وتارة يكون مذمومًا، وتارة يكون مباحًا؛ لأنه لا يخفى إما أن يكون مأمورًا أو لا؛ **فالأول** محمود كحبّ الله وحب رسوله ﷺ، والحبّ في الله وحبّ ما يقرب إليه، **والثاني** هو أن يكون منهيًّا عنه أو لا، فالأول مذموم كحبّ المحرّمات والمكروهات، وإن لم يترتّب على المكروهات عقاب؛ لأنه يترتّب عليها عتاب، والثاني المباح كحبّ الإنسان أهله وولده بالطبع الجبلي الذي لا انفكاك عنه لأحد.

فقد شمل هذا التقسيم الأحكام الخمسة، فإن المحمود يندرج فيه الواجب والمندوب والمذموم يتضمن الحرام والمكروه، والمباح معلوم دخوله تحت غير المنهي عنه، وهو قولنا أو لا، فتعلّق القلب حاصل لكل إنسان، فلو تنبّه المنكر لعَلِمَ أن ما يُنكره عين ما يستحضره، وأن الذي يجهله هو الذي يفعله من الرابطة التي ينفي ثبوتها مع فعله إيّاها فيه من إساءة الأدب مع الله تعالى ما لا يمكن جحده، ولعلم أنه يتأكّد عليه أن يعمل عملاً يزيل عنه هذا البلاء الذي أهلكه من حيث لا يشعر لشدّة سكره في غفلته، وذلك أنه إذا كبّر تكبيرة الإحرام سرح في أودية الأفكار والأوهام وأعرض عن ربّه ونَسِيَ نفسه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: الآية 19]، واشتغل إما برابطة وقفه أو ملكه أو حرفته أو زوجته إنْ كانت نفسه مفتونة بها أو ولده أو تقرير مسألة يلقيها إبليس إليه ليُخْرِجه من صلاته مفلسًا أو مخاطبة من يرتجي منه زكاة أو صدقة، فيقول: إياك نعبد وهو مُقْبِل على معبوده الشهودي ورابطته التي هي

نَصْب عينه، ويستمرّ على هذه الحالة حتى يُسَلِّم، فإذا سَلَّم التسليمة الأولى شرع بالإنكار على الرابطة التي يفعلها العلماء العارفون في وقت مخصوص ليحصل بواسطتها انتفاء الغفلة حتى يُقْبِلُوا على ربِّهم في صلاتهم وذِكْرهم بقلبٍ حاضر، وقد ورد على سؤال مِنَ بعض المعترضين، وهو أن الرابطة التي تأمرون المُرِيد بها لا تخلو بقرينة الأمر بها من أن يكون حكمها الإيجاب أو الندب، وهما أمران شرعيّان لا بدّ لهما من دليل، والأدلّة الكتاب والسُنَّة والإجماع والقياس وغيرها من الأدلّة راجع إليها، فما الدليل على ندب الرابطة أو وجوبها؟ وأيضًا لا شكّ أن النبيّ ﷺ شيخ الصحابة لأنهم أخذوا عنه الأذكار وغيرها، فلم يبلغنا أنه أمرهم بتصوّر صورته التي هي أكمل الصور الإنسانية، فلو أمرهم لنقل لا سيّما إذا كان ذلك واجبًا؛ لأن الواجب مما تتوافر الدواعي على نقله، انتهى.

فأقول: الجواب عن هذا السؤال من وجوه:

الأول: إن الرابطة التي تأمر المريد بأمر السادة النقشبندية الذين هم كما قال الشهاب ابن حجر في الفتاوى الصغرى عن طريقتهم: إنها الطريقة السالمة من كدورات جَهَلَة الصوفية مندوبة لأنها من الوسائل المُوجِبَة لدفع الخطرات ونفي الغفلة والوسائل لها حكم المقاصد، والأمر الذي لم يَنْه عنه الشَّرع يَسُوغ فعله إما على طريق الإباحة إن أدى إلى مباح أو الندب إن أوجب مندوبًا، أو الوجوب إن حصل واجبًا لا يحصل بغيره، فقد حصل لنا بالتجربة ونحن قوم أكثر من عدد التواتر أنّا إذا تصوّرنا الرابطة انْتَفت عنّا الأغيار كلّها، وبقي هذا الغير وحده فنعرض عنه، وهذا مثل إنسان له أعداء فتودّد إلى بعضهم وسلّطه على باقيهم، فإذا أهلكهم عنه لم يبقَ إلّا واحد فيقدر على أزالته فيُزيله، وهذا وجه ينبغي للمُنْصِف أن يتأمّله، فإنه الحسن المطابق للواقع، لأن الرابطة ليست مُرادة لعينها، بل مُرادة لغيرها.

الثاني: قولكم: لا تخلو بقرينة الأمر بها من أن يكون حكمها الإيجاب أو الندب، أقول: لا نسلم أن غير الشارع إذا أمر بأمرٍ أن يكون حكمه الإيجاب أو الندب، وأن الإنسان قد يأمر غيره بفعل مُباح لغرضٍ ما من الأغراض له أو

للمأمور، وقد يأمر الطبيب المريض بشرب بعض الأدوية، فإن كان امتثال أمر الطبيب واجبًا أو مندوبًا فما نستعمله من قبيله.

الثالث: قولكم: وهما شرعيان لا بدّ لهما من دليل. أقول: هذا بناءً على قولنا: إن الرابطة تُوصل إلى أمر مندوب، وما أوصل إلى المندوب مندوب، فالدليل موجود لا على قولكم كل مأمور به لا يخلو من أن يكون حكمه الإيجاب أو الندب لما ذكرنا من أن غير أمر الشارع قد يخلو منهما، ويكون لغرضٍ ما.

الرابع: قولكم: والأدلّة الكتاب. أقول: وهل يَعْزُب عن الكتاب شيء، وهو قد جمع كل رطب ويابس، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية 35]، والوسيلة بالأعمال الصالحة، ولا تكون الأعمال صالحة إلّا بالإخلاص، ولا يكون العمل خالصًا إلّا إذا خلا عن الشوائب، وقد حصل لنا بالتجربة أنّا إذا اشتغلنا بالرابطة خَلَتْ أعمالنا عن شوائب الغفلة، والعمل في الغفلة غير معتدّ به، لأنه يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها، فهي من الوسائل الموجبة لزوال الغفلة، وزوال الغفلة مقصود، وما أوصل إلى المقصود مقصود، ومن لوازم زوال الغفلة الحضور، وهو من أشرف الوسائل، فالرابطة المُوجِبة لزوال الغفلة الموجب للحضور من أشرف الوسائل.

الخامس: قولكم: والسنّة. أقول: وهل يشذّ عن كلام النبيّ ﷺ وتحت كل كلمة من كلامه من بحار المعاني ما يتوصّل به إلى خير، قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1]، والأعمال بدنيّة وقلبية، فالحركات والتصوّرات المباحة إذا نَوَى بها الإنسان الطاعة أو التقوي بها عليها، فله ما نَوَى، ولو لم يُدْرِك مراده، فكيف إذا تحقّق له حصول المراد؟ ولا يخفى أن قول الجائع للشبعان أنت جائع مثلاً لا يُوجب له جوعًا، فكذلك قول المعترض ما ترى صحة ما ترونه ما يوجب عدم صحة رؤيتنا،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي...، حديث رقم (1)؛ وأبو داود في سننه، باب فيما عنى به الطلاق...، حديث رقم (2201) [2/ 262]؛ ورواه غيرهما.

فعليه أن يقول: ما تدعونه حقًّا فأنتم وشأنكم ولا يسوغ له غير ذلك إن نصح نفسه.

السادس: قولكم: والإجماع. أقول: قد أجمع أهل فنّ التصوّف على عمل الرابطة وقرّره منهم الجمّ الغفير وهو عندهم طريق مشهور وإجماعهم على عمل في مذهبهم حجّة يجب قبولها على من تمذهب بمذهبهم، وسنورد أقاويلهم إن شاء الله، ولا يسوغ لغيرهم الاعتراض عليهم بما لم يحط به عِلْمًا.

السابع: قولكم: والقياس. أقول: قال الفقهاء: يسنّ للمصلّي أن لا يجاوز بصره إشارته؛ وذلك لأنه أجمع للهمّ وأدفع للتفرّق، فكذلك الرابطة تستعمل لدفع الأغيار واستجلاب الحضور.

الثامن: قولكم: فما الدليل على نَدْب الرابطة الخ. أقول: الدليل يُطْلَب من المجتهد لا من المُقَلّد، وإنما على المُقَلّد تصحيح النقل، فإن طلبتم دليلاً من كلام أهل الفنّ فسيأتي على أنه لا يلزمه إيراد غير كلام النقشبندية، كما أنه لا يلزمنا أن لو طلب منّا نصّ لمسألة في الفقه إيراد كلام غير الشافعية.

التاسع: قولكم: لم تبلغنا، اهـ. أقول: ما يلزم من عدم بلوغه إياكم عدم ثبوته، ولا يلزم من جهلكم به عدم علم غيركم به، ولعلّه بلغكم وجهلتموه، ومرّ عليكم ولم تعرفوه، وهل للصُحْبة معنى سوى انطباع صورة النبيّ ﷺ في مرآة القلب الذي رآه مؤمنًا، أو انطباع صورة الشخص المؤمن في ذهن النبيّ عليه السّلام، ولولا ذلك لم يعد في الصحابة من رآه النبيّ ﷺ، وهل أمْرٌ أوضح من دعاء النبيّ ﷺ إلى مبايعته المُسْتَلزمة للرؤية المستلزمة لانطباع الصورة، وإذا انطبعت الصورة في الذهن ظهرت لرائيها في مخيّلته مهما تذكر المَرْئيّ شاء أو أبى، ولو كان عدوًّا فاستحضار صورة النبيّ ﷺ وتخيّلها الذي هو المراد بقولنا تصوّرها محبّة له واشتياقًا إليه لا يقول بمنعها إلّا أحمق خبيث، فالأمر بمستلزم شيئًا مستلزمًا شيئًا آخر مرّ بذلك الشيء الآخر.

العاشر: قولكم: لا سيّما إذا كان واجباً. أقول: لم يقل أحد من أهل التصوّف بوجوب الرابطة، ولا باستحبابها لذاتها، بل لما توصل إليه من المَحَابّ

والمُريد يلقّن الرابطة، وهو مُخيَّر في فعلها وتركها، فإن ظهرت له فائدتها تأكّد عليه فعلها، وإن تَرَكَها فقد ترك أدبًا من الآداب، هذا كلّه في البدايات. وأمّا في النهايات، فلا رابطة له سوى استغراقه في شهود من ليس كمثله شيء، فما هو صورة تمثّل ولا تقابل ولا تقبل.

الحادي عشر: قدّرنا مع هذا كلّه أنه لا دليل لنا ولا عمل بهذا العمل أحد قبلنا، وإنما نحن عملنا لما نرى من فائدته، فهل ورد فيمن تصوّر صورة محبوبه وتخيّل أنه يُقبّل يده أو رجله أو يضعه على رأسه أو جبهته أو يعتنقه أو يُدْخِله في قلبه نهي من الكتاب أو السنّة أو الإجماع أو القياس؟ شعر:

لـي سـادة مـن عِـزِّهـم　　　أقْـدامـهـم فَـوْق الـجِـبَـاه
إنْ لـم أكُـنْ مـنـهـم فَـلِي　　　فـي حُـبِّـهـم عِـزٌّ وجـاه

وإذا تقرّر عندنا أنه يحصل بواسطة الرابطة انْتفاء الغفلة، فالاشتغال بها من مهمّات آداب الطريق، إذ من المعلوم أن زوال الغفلة مطلوب، وهو مفتاح السعادات، وأن الحضور روح العبادات، وزوال الغفلة لا يكون إلّا بنزول رحمة الله تعالى على عبده، ومن أسباب نزول الرحمة ذِكْر الصالحين، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، وذِكْرهم من لوازم محبّتهم، ومحبّتهم فرضٌ لقوله ﷺ: وهل الدين إلّا «**الحبّ في الله، والبغض في الله**»[1] الحديث، ومحبّتهم محبّة الله لقوله ﷺ حاكيًا عن الله تعالى: «**أوجبت محبّتي للمتحابّين فيّ**»[2] الحديث، وعداوتهم محاربة مع الله لقوله تعالى على لسان نبيّه ﷺ: «**مَن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[3] الحديث، فما استعمله الصّفوة من عباد الله عين ما

(1) ونصّه: «أفضل الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله». رواه أبو داود، باب مُجانَبَة أهل الأهواء...، حديث رقم (4599)؛ ورواه البزار في مسنده، عن مجاهد عن أبي ذرّ، حديث رقم (4076)؛ ورواه غيرهما.

(2) ورد بلفظ: «وَجَبَت محبّتي للمُتحابّين فِيّ والمُتَجالِسين فِيّ والمُتَباذِلين فِيّ والمُتَزاوِرِين فِيّ». رواه الحاكم في المستدرك وابن حبّان في صحيحه، ذكر إيجاب محبة الله جلّ وعلا...، حديث رقم (575) [2/ 335]؛ ورواه غيرهما.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

حكاه ﷺ، فالذي أرى أنك تصمّ سمعك عن الافتراء ولا تَصْحب من كذب وامْتَرى وتصون لسانك عن المَرْء وتنقاد للحقّ وتخضع، وفي ردّي عن طريقي لا تطمع وأن تعدل كل عدل لا ينفع. شعر:

والله أنـا مـا أقـنـع   بسوى الوَجْه المُبَرْقع
فـلـيـواصِـلْـنـي بـكُـلّي   هـوا ويُـقْـصـي ويَـقْـطـع
حـبّـه مِـلْء وجـودي   فـيـه أزنُـو وأسـمـع
عَـمِـيَـت عَـيْـن حَـسُـودي   عن صُعُودي حين أطْلع
راقـيًـا نـحـو حـبـيـبـي   قائلاً ما شئت فاصنع
لَسْت أرْوَى منك تالـلّـ   ـه ولا والله أشْـبَـع
مَـذْهـبـي مـذهـب خِـلّي   في الهوى والحقّ أوْسع
فـأنـا الـشَّـيْـخ زمـانًـا   كـنـت فـيـه أنا مـرضـع
وأنـا الـيـوم رضـيـعٌ   لست عن ثَدْيك أرفع
أيُّ ثَـدْيٍ لـك حـتّـى   أنـا فـي دَرِّكِ أكـرع
أوَ مـا تَـنْـظُـرني فـي   كُلِّ حِينٍ بِكَ أفْجَع
وإلـى حُـجْـرِك أدْنُـو   وبِرَأسي لـك أخْـضَـع
راجـيًـا أنـك تـحـويـ   ـني وذاك العيش برجع
فـإذا كـنـت أنـيـسـي   وجَليسي كيف أفْزَع
إنـنـي أشـكـر نِـعْـمـا   كَ وفـي ذِكْـرك أخـشـع
مـا دعـانـي لـك إلّا   كَ ولـي إلـيـك مَرْجـع
فـلـهـذا أتـرك الـمـعـ   ـتكر مهما شاء يشفع
يـدّعـي أن سـبـيـلـي   غير ما للحقّ يشرع
ولـعـمـري أنـه الـتـا   ئـه فـي بَـيْـداء بـلـقـع
أيّـهـا الـمـنـكـر أنّـى   شِئْت في الغَيّ تَقْنع
أنت ما تُبْصر نَهْجي   بل طريقًا فيه تسبع
ليست الأبصار تعمى   لكن القَلْب المُطبع

هذا، ونحن لا نستدلّ للرابطة من دليل، ودليل من قلّدناه من العلماء كافٍ وافٍ بالمقصود، فانكار متوجّه على الجُنَيد والجيلي والدسوقي ونحوهم الذين قرّروا الرابطة بكيفيّاتها كما ستراها إن شاء الله في باب رابطة الأولياء عصمني الله وإيّاك من الإنكار، ووفّقنا لاتّباع النبيّ المختار ومحبّة الصادقين الأبرار.

الباب الرابع

القول الأسنى في استحباب الرابطة الحسنى

اعلم أيها الأخ أرشدك الله أن الرابطة من جُمْلة الوسائل المُوصِلة إلى الحضور في عبادة الله والوسائل لها حكم المقاصد.

قال سيدي الحبيب عبد الله باعلوي الحدّاد في كتابه إتحاف السائل: الحضور مع الله روح العبادات وهو المقصود منها وبه يعبأ المحقّقون، والأعمال التي تصدر مع الغفلة يرونها إلى العقوبة والحجاب أقرب منها إلى المكاشفة والثواب، فالرابطة تفيد الحضور، والحضور يفيد رفع الحجاب، فالرابطة تفيد رفع الحجاب، ورفع الحجاب مطلوب، وكل ما أفاد المطلوب، فالرابطة مطلوبة، فقد هلك من لا رابطة له، وكل إنسان له رابطة لكن شواهد الرحمة الهابطة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية 31]، فرابطة رسول الله ﷺ دائمة وأسناها وأسماها قوله ﷺ: **«لي وقت لا يسعني فيه غير ربّي»**(1)، ورابطة الأولياء قوله ﷺ حاكيًا عن الله تعالى: **«ما وسعني أرضي ولا سمٰواتي»**(2) الحديث، ورابطة المريدين قوله ﷺ حاكيًا عن ربّه تعالى أيضًا: **«وجبت محبّتي»**(3) الحديث، وهذا أمرٌ لا يُدركه الإنسان إلّا بالذوق والوجدان، فإن أحببت يا أخي أن تَسْلك سبيل الرحمة الهابطة، وتكون لك على التقوى مرابطة، فعليك بطريق الرابطة، فإنها تعلّق القلب، وتعلُّق القلب بطاعة الله ورسوله منتج لمحبة الله ورسوله والرابطة يحصل بها زوال الغفلة وجمع القلب على الله وذهاب القسوة من القلب والخشوع ونزول

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2159) [2/ 226]؛ والهروي في المصنوع [1/ 258].

(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2256) [2/ 255]؛ والهروي في المصنوع [1/ 291].

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

الرحمة، وكل ذلك يُثمر المحبّة، فإني يا أخي قد حقّقت ذلك وأبصرت ربح من سلك هذه المسالك، وتيقّنت أنك غرٌّ لم تَدْرِ ما هنالك أو مغرور تلقي نفسك في الإنكار الذي هو أفضح المهالك، أفترى أني أصغي لتعدلك أو أميل إلى زخرف أقوالك، أو يخفى على دقيق احتيالك هيهات هيهات ذلك.

شعر:

فلا تلحني فيما أعاني فإنما غرامي كهل والعذول رضيع
دعاني الهوى حتى ادّعى الغيب أنني شهادته والحاضرون هجوع
محاني عن عيني وعن عين عينه فصيفي شتاء والخريف ربيع
وعن غائبي عن شاهدي وهو أنه كذاك ولا يخفى عليه صنيع
فزاد هيامي فيه حتى إذا جنا سقامي ذنبًا فالغرام شفيع
وما ساءني ما ساء من سوء محنة فمنحة قلبي أن تسيل دموع
أبى الوجد إلّا أن يُريق مدامعي دمًا وهيامي في الوجود يشيع
هل الحب إلّا ما حَوَتْه أضالعي فلله حبٌ ضمنته ضلوع
لسيب الحشا أبى بعشقي سنا الرّشا سليب الحِجَى مني الفوائد لديغ
فهِبْ لي أذنًا تسمع القول لا حجى يرجح ما تدعو له ويطيع

فإن قال الأخ المنكر تاب الله عليه: قد عرفنا على هذا القول أن الرابطة تعلّق القلب، وهذا القول يمنعه والحب في الله واجب، ومحبة الصالحين ثابتة، لكن من أين لكم أن استحضار صورة رجل في الذّهن، ولو كان من الصالحين تحصل به هذه المطالب كلّها، وأن استحضاركم بسبب تعلّق القلب، وأنه جائز؟ والجواب عن هذا من وجوه:

الأول: قولك من أين لكم أن استحضاره صورة رجل في الذهن تحصل به هذه المطالب كلّها. أقول: إن هذه المطالب تحصل لنا بما ذكرناه كما حصلت لك أضدادها باستغراقك في معبودك الذي نبّهناك عليه، ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. ألّا ترى أنك إذا كبّرت تكبيرة الإحرام اشتغلت برابطة التاجر الذي يعطيك زكاة أو صدقة أو برابطة الحاكم أو الوزير أو مالك أو أهلك أو بكلّ في ركعة وسجدة، وتَنْسى من أنت واقف بين يديه، ولا

تستحي منه وتنسى نفسك وتخرج من الصلاة ولا تدري أي شيء قلت، أتنكر ذلك؟ ما أراك تجحد ذلك.

الثاني: قولك: إن استحضاركم بسبب تعلق القلب. أقول: لا يَخْفى أن استحضار الشيء سببه تعلّق القلب به، وأهل هذا الفن مع تعلُّق القلب يتكلّفون استحضار صورة محبوبهم ولا يحصل لهم إلّا بالتكلّف لأنهم دائمًا يسعون في تطهير قلوبهم بإزالة ما سوى الله منها بواسطة الرابطة في غير وقت العبادة، ومن كان شغله نفي ما سوى الله؛ لا جرم أنه لا يستحضر أحدًا إلّا بسبب تعلُّق القلب مع التكلّف للفائدة التي ذكرناها، وأنت تشهد أن سببه تعلّق بالقلب، ولا تكتموا الشهادة؛ وذلك لأنك شديد الاعتناء بتحصيل مقاصدك، فإذا كبّرت للصلاة ظهرت لك صورها، وصارت قبلتك التي تسجد إليها ونسيت ما سواها لتعلّق قلبك بها واستيلائها عليه وانتقاشها في نفسك، فإنه يحصل لك ويجوز لك استحضار هذه المثالب، ونحن يحرم علينا السّعْي في حبّ هذه المطالب وأنت مُحِقٌ، ونحن مُبْطِلون، أهكذا يكون الإنصاف؟ ما هذا إلّا الاعتداء.

والخلاف الثالث: قولك: إنه جائز. أقول: من المعلوم أن الأصل في الأشياء الحلّ ما لم تثبت الحُرْمة، فكل شيء لم يَنْه الشرع عنه، فهو مباح وفعله جائز، فحركات الإنسان وتصوّراته المباحة فعلها جائز، فإن أوصلت إلى مندوب ففعلها مندوب، فالرابطة فعلها باعتبار الأصل جائز، وباعتبار ما توصل إليه مندوب.

الرابع: عدم علمك بحصول مطالبنا ما يجوز لك سلبنا ولا الإنكار علينا بما لم تُحِطْ به علمًا، كما لا يلزم من جهلك عدم وقوع مقصودنا.

الخامس: قد عُلِمَ وقُرِّر واشتهر أن المُصَلّي يسنّ له النظر إلى موضع سجوده في جميع صلاته، ويُسَنّ للأعمى ومن هو في ظلمة أن تكون حالته كحالة النظر لمحل سجوده، والمراد من ذلك جمع القلب والحضور وعدم التفرقة، وهذا من أنواع الرابطة، أفلا تجعل تخيّل الرابطة كتخيّل الأعمى النظر إلى موضع سجوده في جميع صلاته لحصول الفائدة، فإن المقصد واحد إلّا أن

أهل الرابطة يفعلونها في غير وقت الصلاة ليحصل لهم جمع القلب على الدوام وليتوصّلوا بها إلى رابطة الصلاة، وهي أن تَعْبُد الله كأنك تراه.

السادس: إذا عمل قوم بلغ عددهم التواتر عملاً وأثبت كل منهم فائدته وقرّر منفعته، فهل يجوز لأحد تكذيبهم مع استحالة تواطئهم على الكذب، ومع أن عيونهم عيون الناس أهل العلم والفضل، وما أنت وعلمك بالنسبة إليهم إلّا كفحام عند جوهري أو كمن يحفظ حروف الهجاء ليناظر بها الفخر الرازي، فالأوْلى أنك تعترف لهم، وإذا فاتتك صحبتهم لا تفوتك محبّتهم، وإذا لم تحبّهم فلا تسبّهم. **شعر**:

وإذا كنت بالمدارك غرًّا ثم أبصرت حاذقًا لا تُمار
وإذا لم تَرَ الهلال فسلّم لأناسٍ رأوْه بالأبصار

السابع: قد علمت أن أحكام الشرع لا تثبت إلّا بدليل، وأن يكون نصًّا لا محتملاً، ولا عامًّا مخصوصًا ككل بدعة ضلالة لما يلزم عليه من الفساد؛ إذ من البِدْعة ما هو واجب، ولو تنزّلنا وفرضنا أنّ عمل الرابطة لا دليل لنا عليه، وإنما فعلناه لما حصل لنا من الفائدة بالتجربة، فالإنكار علينا من أيّ وجه، وما دليله؟ ولقد أصبت بقولي في الرسالة المهملة الحروف. **شعر**:

حسد المرء والمُراد مُراد الله ما لامرىء سواه عماد
ما أراد الإله سعاد مملوك وأردى مراده الحُسّاد

الثامن: وهو ضرب مثل أمر الملك طبيبه الحاذق الحكيم بمداواة أهل مملكته من أمراض غلبت على أكثرهم أضرّها البطن حتى آلت بالأكثر إلى عدم القيام بالخدمة، وكان الطبيب حكيمًا ماهرًا وعالمًا راسخًا وعارفًا كاملاً، ومن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، فقال في نفسه: تنفيذ هذا الأمر من أهمّ المهمات وأوجب الواجبات، وتعليمه لمن يتأهّل للقيام بعمله موجب لدوام الأجر والمثوبات، وخير العمل ما نفع، وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث، أحدها عِلْمٌ يُنْتَفع به، فعمد إلى بعض المرضى ممن تفرّس فيه وعَرَف أنه يكون أهلاً للقيام بهذه الوظيفة وتنفيذها على الوجه المراد إذا عُوفي فعالجه حتى عُوفِي ثم علّمه الطب والحكمة وأخبره بالأدوية وخواصّها وأعطاه دواء

البطن، وقال له: خذ هذا الدواء وانفع به الناس ولا تسأل عليه أجرًا وكُنْ مُحْتسبًا لتكون لك المنزلة الرفيعة عند الملك، فإنّ أحبَّ الأعمال إلى الملك عملك هذا، فقال: سمعًا وطاعة، فنظر النائب بعد خروجه من عند الحكيم في دواء البطن ما هو، فإذا هو عسل أبيض، فقال: الحمد لله فيه شفاء للناس، فأتاه شخص أحمق مثلك أيها الأخ بصرك الله بعيبك ووفّقك لترقيع جيبك، فقال: ما هذا الذي عندك؟ فقال: دواء البطن للمبطونين، فقال: أرِني إيّاه، فأظهره له في ظرف مختوم على فيه فاشتمّه من قبله فقال له: ما هذا دواء البطن، هذا سمٌ أتيت تُهْلِك الناس به، هذا سمّ ساعة. فقال: يا أخي هذا عَسَلٌ مصفّى هذا للذين آمنوا هدًى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى فَذُقْه حتى تعلم، فقال له: ما أنت أعلم مني ولا أعرف مني، من ذاق هذا هلك أيها الناس، هذا ما أنزل الله به من سلطان، وأكثر الناس حمقى، وشَبَه الشيء مُنْجَذِبٌ إليه، فترك الناس التداوي به مع شدّة حاجتهم إليه بسبب كلام هذا الأحمق المغرور، فلا يزال يتكلّم في ذمّ الدواء والمداوي والمتداوي ويصدّ عنه من أراد شفاء مرضه الذي عطّله عن خدمة الملك، وستذكرون ما أقول لكم، ولتعلمنّ نبأه بعد حين.

التاسع: من المعلوم أنّا لم نبتكر شيئًا جديدًا، وإنما قلّدنا من تقدّمنا من العلماء العاملين والأكابر العارفين من أهل المذاهب الأربعة كما سترى تقريرهم الرابطة وكيفياتها، بل أقسم أن جميع حركاتي وسكناتي في الطريقة هو ما هو عليه أئمّة مذهبي الشافعية، وقد اسْتَوْفت كُتُبهم جميع ما نتعاطاه من الأعمال المخصوصة، فما وجه الإنكار علينا مع اتّباعنا أئمّة الدّين والعلماء العالمين، كالغزالي والنووي والقاضي زكريّا وابن حجر والشعراني والمناوي: أتظنّ أن إنكارك ما يتوجّه على أولئك السادة الأبرار والأولياء الأخيار وأولي الأنوار والأسرار، أمَا تخشى مُحاربة الواحد القهّار؟ أما عَلِمْتَ أن الإنكار عليهم يؤول بصاحبه إلى سوء الخاتمة ودخول النار؟ تظنّ أن إنكارك ظاهرًا واعترافك باطنًا ليس من التلبيس ومشاكلة إبليس، وجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتها أنفسهم ظُلْمًا وعلوًّا، تنبّه لنفسك أيها المغرور واخْشَ عواقب الأمور، إنك ميّت وإنهم ميّتون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنْقَلبٍ ينقلبون، وهذا السؤال ما يحتمل هذه الأجوبة،

وإنما أوردناها نصيحة وإفادة وترغيبًا وترهيبًا، ولكل امرىء ما نوى، ونسأل الله أن يمنّ عليك بالهداية وسلوك سبيل الأبرار وأن يجنبك الإصرار في سبيل الأشرار، إنه وليّ المؤمنين.

واعلم يا أخي أن سبب الإنكار أحد الأمرين لا يخلو من أحدهما كل منكر الجهل، وهو الأكثر، وعدم العمل بالعلم وهو الأغلب على من ينتسب إليه، فإنْ كنت جاهلاً يا أخي فلا تَقْفُ ما ليس لك به علم، فتقع في الظلم، ولا تَقُلْ هذا حلال وهذا حرام لتحكم بغير ما أنزل الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية 44]، وإن كنت عالمًا فاعْمَل يا أخي بعِلْمِك ولا تَتَّبع الهوى فيُضِلّك عن سبيل الله، وما أحسن ما قلت في الرسالة المُهملة الحروف: أمَا والله للعِلْم والعمل هما المراد، ولإدراكهما أرْسَل الرُسُل إلى الأمم كمحمد ﷺ على روحه ما عود ماس وآل رماد، وكصالح ولوط ورسول عاد، ولا أحد أهْمَلهما إلّا وهلك حالاً وحالَ المعاد وآلَ أمره إلى أسوء مِهَاد، وهل الهدي حاصل إلّا لسالك سلكهما، وواصل إلى سوح وِداد ملكهما، وحلّاه الملك أساور هداه، وحلّله وأمدّه وأصلح عمله، لا والله لا وِدّ إلّا وِدُه، ولا مَدّ إلا مَدُّه، ولا موائد إلّا موائده، ولا عَوائد إلّا عوائده، ولا هدي إلّا هُداه، ولا مُعَوّل إلّا على ما أسْداه. **أشعار:**

هو الملك المُطاع وما سِواه ... له مِلكٌ ومملوك وطائع
هو المَوْلى المُراد وما عَداه ... كآل ما علا صحراء لامع
وهل آل كماء الورد أمْسَى ... وهل أحد رآه وهو طامع
ألا وحّد إلٰهك وادْعه لا ... إلٰه سواه وهو الله سامع
أمَا والله ما مَوْلاك ساهٍ ... ولا لَاهٍ ولا وَاهٍ وهالع
هو الحكم المُصوّر وهو عَدْلٌ ... وحول الله مَسْمُوع المسامع
له مُلْكُ السّماء وكلُّ مُلْك ... ممالكه ومردوع ورادع
أمَا وهُداه لهو الله مولى الـ ... ـسوى طرا محلهم المصارع
أما وعُلاه لهو الدهر سام ... ومعلوم السموّ لدى المطالع
أمـا وعـلوّه لله داع ... إلى دارِ السلام إلا مُسارع

أمَا والله ما هو صاح إلّا ... إلـه واحد صَمد وواسع
أُوَحِّده ولم أرَ ما سواه ... ولم أره سواه لدى المطالع
أما آلاؤه دهرًا أراها ... كمدرار السماء أما أطالع
ألم أرَ ما أرى الكرماء لما ... سَمَوْا أو هم الأولى حلس الصّوامع
أرى صرحًا له روح وراح ... ولولا الرَّوح لم أُسِلْ المدامع
ولولا الروح ما للروح سكر ... ولولا السُّكْر ما للصرح صادع
ألم أعلم وهل عِلْم كعِلْم امـ ... ـرىء أعلا مطامعه المدامع
دعاه المَحْو أطوارًا عدادًا ... وصار مسامر الصَّحْو المطاوع
أصاح أعِلْمٌ وعِلْمُ كُلٍّ حُرٌّ ... مُسِرٌّ ما رأى ولو اللّوامع
ودَعْ كل امرىءٍ ألهاه لهو ... ألا وارحل إلى المولى وسارع
ووَدِّعْ كل ما ألهاك طرًّا ... وسَلْه لا سواه سؤال راكع
وصَلِّ على إمامِ الرُّسْل طه ... وسَلِّم ما ازْعوى وَرِع وطائع

الباب الخامس

في قول أهل الاصطفاء في رابطة المصطفى ﷺ

اعلم أيها الأخ في الله ألهمك الله رشدك، وجعلك عبده لا عبدك، أن رابطة الشيخ الكامل تُوصلك إلى رابطة رسول الله ﷺ وثمرتها الفناء في النبيّ ﷺ، وذلك من أجلّ النِّعَم وأوفرها نقاء، وما يُلَقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم، والفناء في النبيّ عليه السلام مُوجب للولوج في حضرة القُدُس والهَيَمان في مَفَاوز الأُنس والتعرُّض لنفحات الله تعالى مأمورٌ به، ومحبّة رسول الله ﷺ فرضٌ. روى البخاري في صحيحه عن أنسٍ رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»(1)، والنفس تدخل في عموم قوله: «**والناس أجمعين**»، وقد وقع التنصيص بذكر النفس في حديث عبد الله بن هشام، وهو أن عمر رضي الله عنه قال للنبيّ ﷺ: لأنت أحبّ إليّ يا رسول الله من كل شيء إلّا من نفسي، فقال ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبّ إليك من نفسك**»، فقال له عمر رضي الله عنه: فإنك الآن أحبّ إليّ من نفسي، فقال ﷺ: «**الآن يا عمر**»(2)، ويكفيك قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية 6]، فمن هو أولى بك من نفسك؟ فكيف لا ينبغي أن يكون أحبّ إليك منها؟ قال سهل رضي الله عنه: من لم يَرَ ولاية رسول الله ﷺ في جميع أحواله ويَرَ نفسه في ملكه عليه السلام لا يذوق حلاوة سنّته.

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، حديث رقم (44) [1/ 67]؛ والحاكم في المستدرك، تفسير سورة الممتحنة...، حديث رقم (3805) [2/ 528]؛ ورواه غيرهما.

(2) رواه البخاري في صحيحه في بابين: أحدهما، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ...، حديث رقم (6257) [6/ 2445]؛ وأحمد في المسند عن عبد الله بن هشام أبو عقيل عن جدّه، حديث رقم (22556) [5/ 293]؛ ورواه غيرهما.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من أشدّ الناس لي حبًا ناسٌ يكونون بعدي يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله»**[1]، وفي الشفاء: سُئِل عليٌ رضي الله عنه: كيف كان حبّكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأُمّهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ. وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه: خرج عمر رضي الله عنه ليلة يحرس فرأى مصباحًا في بيت، وإذا عجوزٌ تنفش صوفًا وتقول: على محمد صلاة الأبرار صلّى عليه الطيّبون الأخيار، قد كنت قوّامًا بكّاءً بالأسحار، يا ليت شعري والمنايا أطوار، هل تجمعني وحبيبي الدار، فجلس عمر يبكي، وفي الحكاية طول.

وروي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه خدرت رجله فقيل له: أذكر أحبّ الناس إليك يَزُلْ عنك، فصاح: وامحمّداه، فانتشرت. قال: واعلم من أحبّ شيئًا آثره وآثر موافقته وإلّا لم يكن صادقًا في حبّه وكان مدّعيًا، فالصادق في حُبّ النبيّ عليه السلام من تظهر علامات ذلك عليه.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا بنيّ إن قدرت أن تُمسِي وتُصبح ليس في قلبك غشٌ لأحد فافعل»**[2]، ثم قال: **«يا بنيّ ذلك سنّتي ومن أحبّ سنّتي فقد أحبّني، ومن أحبّني كان معي في الجنّة»**[2].

ومن علامات حبّ رسول الله ﷺ كثرة ذكره وتعظيمه وتوقيره عند ذكره وإظهار الخشوع والانكماش مع سماع اسمه، كان أصحاب النبيّ ﷺ بعده لا يذكرونه إلّا خشعوا واقشعرّت جلودهم وبكوا، وكذلك كثير من التابعين.

قال بعضهم: المحبّة دوام الذِّكر للمحبوب، وقال آخر: إيثار المحبوب على جميع المَصْحوب، وقال آخر: المَيْل الدّائم بالقلب الهائِم، وقال آخر: موافقة الحبيب في المَشْهد والمغيب، وقال آخر: أن تهب كلّك لمن أحببت. وحقيقة الحبّ الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إما بإدراكه كحبّ

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، (4 باب فيمن يودّ رؤية النبي ﷺ...، حديث رقم (2832) [4/ 2178]؛ وابن حبّان في صحيحه، ذكر البيان بأن مَن قد آمن بالمصطفى ﷺ...، حديث رقم (7231) [16/ 214]؛ ورواه غيرهما.

(2) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الأخذ بالسُّنّة...، حديث رقم (2678)؛ [5/ 46]؛ والطبراني في الأوسط، مَن اسمه محمد، حديث رقم (5991) [6/ 123]؛ ورواه غيرهما.

الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له، أو استلذاذه بإدراكه بحاسّة عقله وقلبه معاني شريفة باطنة كمحبّة الصالحين والعلماء وأهل المعروف والمأثور عنهم السِّيَر الجميلة والأفعال الحَسَنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصّب بقوم لقوم والتشيّع من أمّة إلى أخرى إلى ما يؤدّي إلى الجلاء عن الأوطان وهَتْك الحرم واخترام النفوس، وهو ﷺ جامع للمعاني المُوجِبة للمحبّة كلّها، انتهى.

وقال الشهاب بن حجر في في شرح الهمزيّة عند قول الناظم:

فاملأ السمع من محاسن يمليـ ... ـها عليك الإنشاد والإنشاء

فإنها تُحْدِثُ للسّامع سكرًا وأريحة وطربًا وتُحَرّك النفس إلى جهة محبوبها، فيحصل بتلك الحركة والشوق تخيّل المحبوب وإحضاره في الذهن وقُرْب صورته من القلب واستيلائها على الفكر، فيحصل للروح ما هو أعجب من سكر الشراب وألذّ من عِناق الشواب. شعر:

سلوي عن محبّتك المُحال ... ولو يا منيتي عزّ الوصال
وأين شبيه حسنك في البرايا ... فتنسى إذ يكون به اتّصال
على أن ليس وصلك لي بكافٍ ... فكيف ومانعي منه الدلال
فما بيني وبين سَنَاك بَوْنٌ ... فعيني في لحاظك لا تزال
ولو أن الغبار أزيل عنها ... أحَلتني محلاًّ لا يُنال
فواعجباه من سُكْناك داري ... وحقّ الحقّ مسكنك الجبال
ووا ألماه من هذا التنائي ... ومع هذا لبهجتك انفصال
أتبْعِدني لشُؤم قبيح جرمي ... حبيبي أيّ ذنبٍ لا يقال
وأيُّ شفيعٍ حتى تقبلوه ... وأي تنصّل لكم يقال
وحقّك إنما عذري اعترافي ... بأن عظيم ذنبي لا يُزال
وعِلْمي إنما مأمولي عفو ... وظنّي أن نائله أنال
ألا يا ليت شعري أيّ وقتٍ ... أرى أني لأخمصك النّعال
حبيبي كيف عنك أطيق صبرًا ... وأنت الخالص المحض الجمال

وهل إلا جمالك شام طرف بغير إضافة لولا الخيال
ظهرت فبان وجهك في المرايا بلا حصرٍ وذاك هو الظلال
فما هو أنت إلّا أنت لكن لأجل الوهم قيل بدا الهلال
فتلك ذكا وبدر التمّ سارا وقد حلّاهما منك النوال
ولي من صورة المحبوب زِذْب[1] فحظّي منك يا أملي حلال
فجِدْ لي يا حبيب وعُد وجودي وأعِذْ مني شهودي يا كمال
وكُنْ لي شاهد المشهود صفوًا بلا كَدْرٍ فلا يبدو الجلال
لأنت منحتني مَجْدًا بِوَجْدي فمن قَبس الغرام بي اشتعال
أردتُ الحُبّ من قدم فشوقي له في كل أعضائي مجال
فلا أنفكُّ من حَرَقٍ وَوَجْدِ فأحمالي مع البلوى ثِقال
فصَلّ على دَهْرك يا جمالي لتحسن من مراحمك الخِصال
وأطلع شمس حسنك في سمائي اغْرُفا معي إلّا السؤال
فأنت ذخيرتي ولأنت كنزي وعِزّي كل ما وَقَع النّزال
وأنت مُعَوّلي في كلّ أمرٍ لديه لا يفيد الاحتيال
وفي اليوم العظيم لأنت غَوْثي وحِرْزِي عندما يقع النّكال
فلا والله أرغب عنك حتى ولو حشيت بأجفاني الرمال
وصلّى الله ما طَرَفَتْ عيونٌ وما تُجْنَى غصونٌ أو تُمال
على خير الخلائق ذي المرايا مُحَمّد المُجَلّل بالجمال

قال في حُسْن التوسّل في زيارة خير الرُسل ﷺ: ومن فوائد الصلاة على النبيّ عليه السلام محبّة المصطفى للمصلّي على رسول الله ﷺ، بل زيادة المحبّة المذكورة اللازمة لها ازدياد الشوق مع استحضار المحاسن النبويّة في القلب والجنان، بحيث يمثّل خياله به ولا يكاد يَفْتُر من ذكر القلب واللّسان:

لو شُقَّ عن قَلْبي يرى وسطه ذكرك والتوحيد في سطر

(1) الزِذْب: بالكسر، النّصيب، ج: الأزداب. (القاموس المحيط).

وقال الشيخ أحمد بن عبد الحيّ الحلبي في آداب الصلاة على النبيّ عليه السلام: تنبيه: اعلم أنه يتأكّد على المُصَلّي على النبيّ عليه السلام أن يتصوّر وقت الصلاة عليه ﷺ صورته النبويّة الكريمة في مرآة قلبه، كأنه بين يديه سائلاً من الله الصلاة والسلام عليه لأنه إذا واظب المصلّي على ذلك تدوم عليه غاديات أنواره الكريمة المحمدية. شعر:

بأبي أيها النبيّ الكريم ... والرسول المُطَهَّر المعصوم
والحبيب الأسْمَى الزكي المرجى ... والمراد المُقَرَّب الصهميم
والخليل الذي نجا قاب قوسين ... وحيث الخطاب والتَّكليم
والضّيا الذي به عمر الكون ... ومن قبل رسمه معدوم
والحليم الذي له الخلق المنـ ... ـصوص في الذكر إنه لعظيم
والجواد الذي على كلّ مخلو ... قٍ له أنعم وفضل قديم
والشجاع الذي إذا صال فالمو ... ت له السيف والغِماد الجسوم
تُهْلِكُ الجَمْع بالإشارة إن شئـ ... ـت ولكنّك الرؤوف الرحيم
والمُطاع الذي متى تأمر السُّحْـ ... ـب أتت حسبما تقول الهيوم
تُرْسِل الغَيْث حيث ما تقصد الغو ... ث فما في النّبات قَطّ هشيم
فيُرَى الجَدْب هاربًا خوف بطش الـ ... ـخصب فالشُّكر في الرَّخا مقيم
فلأنت الغيّاث والغوث ذو الحَظْـ ... ـوة والاصطفاء والمعلوم
والملاذ الذي متى أمّه المكـ ... ـروب زالت هُمُومه والغموم
والمُهَاب الذي لو انتهر العا ... لم مالت أسماؤه والرُّسوم
من يُجَاريك في سماء المعالي ... أو يُباريك أيهذا الوسيم
سَعِدَتْ عين من رآك ... وكذا من رُؤْيا سَنَاك يروم
يَدْأَبُ الدَّهر في رضاك عسى تلـ ... ـقاه منك الرّضوان والتكريم
فهو ساعٍ للعهد راعٍ فيا خيـ ... ـبة من فاته لك التعظيم
أيّ شيءٍ في المُلْك أو ملكوت اللّـ ... ـه ما أنت أصله المَوْسُوم
أَوَ ما جابر روى عنك الصّدْ ... ق لِمَن فيه عِندنا مرسوم
إن نور النّبي أوّل مخلو ... ق ومنه التفضيل والتقسيم

فلأنت الأصل الأصيل وكلّ   مِن سَنا نور ذاته مَبْروم
ولأنتَ النُّور الجَليّ ومن ضَوْ   ئِكَ نسارَتْ كواكبٌ ونُجوم
ولأنتَ الأخِير والأول المخـ   ـتار والمُعْتَنى به المَرْحوم
ولأنتَ الرَّحيم يا رحمة اللّـ   ـه ومِنْهاج دينك المستقيم
ولأنت الذي محاسن أوصا   فك في الصُحُف كلّها مرقوم
ولقد كُنْت قاسِم البِرّ والخيـ   ـر فَمِنْك النَّدى ومِنْك العلوم
طِبْتَ من طيب أبي طيب في   طيبٍ فالثَّناء عليك يَدُوم
مَنْ يُطِيق الثَّناء عليك قد أسْـ   ـمعنا مدحك الكتاب الكريم
لكنّ الحُبّ يقتضي الذكر للمحـ   ـبوب والحمد ما حَوَتْه الرُّقوم
فَلَئِنْ فُهْت والبضاعة مزجاة   فجُهد المُقِلّ منه جسيم
فعليك الصلاة ما طرفت عيـ   ـن وسالَتْ عينٌ ورَنَّتْ غيوم
وعليك الصلاة من موجد الخلـ   ـق ومُحْيِ العظام وهي رميم
وعليك الصّلاة مِلْءَ السمٰوا   ت تلاها التشريف والتَّسْليم
وعلى الآل والصحابة والأتـ   ـباع ما هَبَّ في الوجود نسيم

وقال الشيخ أحمد بن عبد الحيّ أيضًا: **تنبيه أيضًا:**

واعلم أن من ثمرات الصّلاة على النبيّ عليه السلام انطباع صورته الكريمة في النفس انطباعًا ثابتًا مُتَأَصّلاً مُتصلاً، انتهى. جعلنا الله وإياك من المرابطين على أشرف أنواع الرابطة والمخصوصين بالرَّحمة الهابطة إنه وليّ المؤمنين.

الباب السادس

في القول المُجْمل في رابطة الأولياء الكُمّل

اعلم أيها الأخ مَنَّ الله عليّ وعليك بمحبّة أوليائه وسَلَك بنا سبيل المُهْتَدِي بضيائه، أن سفيان الثوري قال: لا نجاة يوم يخسر المُبْطلون إلّا لنبيّ أو تابع نبيّ أو مُحِبّ، ولو أن عارفًا بالله في مَشْرق الشمس ينطق بحقيقة، ورجل مُحِبّ له في مغربها لكان له نصيب من ذلك على حسب قِسْمته وتهذيب محبّته، وأن الرجل لَيُعَانِق الرجل وأن بينه وبينه لأبْعَد مما بين المشرق والمغرب، وقلب العارفين يكتب وقلب المريدين يُكْتب فيه، انتهى. وقال سيّد الطائفة جنيد: وأقرب الطُرق إلى حصول المقصود دوام ربط القلب بالشيخ واستفادة علم الواقعات منه حتى يفنى تصرّفه في تصرف الشيخ، انتهى.

وقال المُحقّق الأردبيلي شارح المَشْكاة في رسالته المَكّيّة الشرط السابع: دوام رَبْط القلب بالشيخ واستفادة علم الواقعات منه من جهة الإرادة التامّة لأنه الرفيق في الطريق، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: الآية 119]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية 35]، ثم قال: فصل المريد إنْ تيقّن أنّ روحانية الشيخ غير مُتَحَيِّزة بموضع دون موضع، وكلّ ما يكون غير متحيّز استوت عليه الأمكنة كلّها، ففي أي موضع يكون المريد لا تفارقه روحانية الشيخ، وإنْ كانت تُفارق شخصيّتها والبعد إنما يتعلّق بالمريد، وإذا تذكّر المريد الشيخ بقلبه قَرُبَ إليه فيتعلق قلبه به فاستفاد منه، فإذا احتاج المريد إلى الشيخ ليحل واقعته يستحضره بقلبه ويسأله عمّا يشاهده لا باللّسان الظاهر، بل بلسان القلب فيُلْهِمُه روح الشيخ معنى الواقعة عُقَيْب السؤال، وإنما تيسّر له ذلك بواسطة ربط قلبه بالشيخ، ومن هذا الوجه يُفْصِح له لسان القلب ويَنْفَتح له طريق القلب إلى الله تعالى، فيجعله مُحَدَّثًا، انتهى.

وقال سيدي إبراهيم الدسوقي: يا أولادي إنْ صحّ عهدكم معي فأنا منكم قريب، فإن أخذتم عَهْدي وعَملتم بوصيّتي وسَمِعْتم كلامي، ولو أنّ أحدكم بالمشرق وأنا بالمغرب رأيتم شبح شخصي، فمَهْمَا ورد عليكم شيء من مشكلات سرّكم أو شيء تستخيرون فيه ربّكم فوجّهوا وجهكم وأطْبِقوا عين حِسّكم وافْتَحُوا عين قلبكم، فإنكم تروني جِهارًا وتستشيروني في جميع أموركم، فمهما قلته لكم فاقبلوه وامتثلوه، وليس هذا خاصًا لي بل عامّ بكل شيخ صدقتم في محبّته، وقد يعلم ذلك شيخكم وقد لا يعلمه هكذا جَرَتْ سُنّة أولياء الله مع مريديهم، انتهى. وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم بن علان الصديقي في شرح قصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الشاذلي الشهير بابن بنت المَيْلق قُدّس سرّه التي أوّلها: **شعر**:

مَنْ ذاقَ طَعْم شَرَاب القَوْم يدرِيه ... ومَنْ دَرَاه غدًا بالرُّوح يَشْريه

عند قول الناظم: (إذا رُئِي ذكر المولى برؤيته) أي رُئِي هذا العبد ذُكِر المَوْلى برؤيته كما ورد في وصف الصالحين الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله لأنّ نُور قلبه مشرق على وجهه سيماهم في وجوههم، فمن رآه رأى نور الحقّ الساطع من قلبه على وجهه، ومن تمّ له ذلك فاز بالسّعد والقرب. قال ابن علوان:

سَعِدَتْ أعْيُنٌ رَأتْكَ وقَرّتْ ... وكَذا عَيْنُ رَأتْ مَن رآكَا

ومثل ذلك الشمس إذا أشرقت على جدار وفي مقابل ذلك الجدار جدار آخر، فيُشْرِق ذلك الجدار الذي أشرقت عليه الشمس، وعنده ـ أي عند الناظم ـ طريقة معروفة مشهورة عند المشائخ يسمّونها بالرابطة، وهي رؤية وجه الشيخ، فإنها تُثْمِر ما يُثْمر الذِّكْر، بل هي أشدّ تأثيرًا من الذّكر لمن عَرف شرطها وآدابها، ومن ذلك كان تربية النبيّ ﷺ للصحابة رضي الله عنهم، فكانوا يستغنون برؤية طلعته السعيدة وينتفعون بها عن كل رياضة ومُجاهدة أكثر مما ينتفعون بالأذكار في مُدّة مديدة، ولهذا كانت درجة الصحابة لا تُضاهى والاجتماع بالمشائخ ولو ساعة مرتبة بها يَتباهى، انتهى. وقال ابن أبي داود الحنبلي صاحب كتاب تحفة العباد في كتابه آداب المريد: وعلامة صحة إرادة المُريد تعلّق قلبه بشيخه واستغراقه في مشاهدته في الغَيْبة والحضور حتى لا

يَشْهَد معه من الخَلْق أحدًا غيره، فإذا صحّ له هذا المشهد انتقل منه إلى مشهد الجمال السّرمدي، وهذا الذي لا يشهده إلّا أهل المعرفة بالله لا الغبيّ الجاهل المَفْتُون بشهوة نفسه الأمّارة بالسوء، أو الجامد الذي ليس عنده شيء من الروحانية. قال بعضهم: شعر:

إذا أنت لم تَعْشَق ولم تَدْرِ ما الهَوَى فكُنْ حَجَرًا من يابِسِ الصَّخْر جامِدا

انتهى. قال ابن عطاء الله الشاذلي في كتابه مفتاح الفلاح في آداب الذِّكر: قالوا ـ يعني المشائخ ـ وإن كان، أي المريد، تحت نظر شيخ يُخَيِّل شيخه بين عينيه فإنه رفيقه في طريقه وهاديه ويستمدّ أول شروعه في الذِّكر من هِمّته معتقدًا أن استمداده منه هو استمداده من النبيّ ﷺ، لأنه نائبه.

قال الشيخ عبد الوهاب الشّعراني في رسالة مدارج السالكين: الأدب السابع: أن يُخَيِّل خيال شيخه بين عينيه، وهو عندهم من أهم الآداب وآكدها. وقال أيضًا في البحر المورود: اعلم يا أخي أن رباط أحدنا قلبه بشيخه حيّ أو ميت ينفعنا، ولو لم يكن ذلك الشيخ في علم الله شيخًا؛ لأن ربطنا حقيقةً إنما هو لاستناده إلى الله لا لذاته، ومُحال أن يوجد الحقّ تعالى عند السَّراب الذي ظنّه الظمآن ماء، ويفقد عند عبد من عباده مشهور الصلاح مع أن السَّراب ليس له حقيقة بخلاف الصالح له وجوه وحقيقة، فافهم، انتهى.

وقال الشيخ تاج الدين الحنفيّ في كتابه المشهور بالتاجية الثانية: طريقة الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة وتحقّق بالتجلّيات الذاتية، فإن رؤيته بمقتضى هُمُ الذين إذا رؤوا ذكر الله، فينبغي أن تُحْفَظ صورته في الخيال، وتتوجّه للقلب الصنوبري حتى تحصل الغيبة والفنا عن النفس، وإن وَقَفْتَ عن التَّرَقّي فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كَتِفك الأيمن في خيالك، وتعتبر من كتفك إلى قلبك أمرًا ممتدًّا، وتأتي بالشيخ على ذلك الأمر الممتدّ وتجعله في قلبك، فإنه يُرْجَى لك حصول الغيبة والفنا، انتهى.

وقال الشيخ إبراهيم بن عمر المُلّا الأحسائي في رسالته: فإن لم تمكّنه مصاحبة الشيخ لتعذّره ببُعْدِه عنه فعليه بإحضاره في خياله، ويعتقد أنه في حضرته وصحبته ويتصوّر نفسه كأنها بين يديه ويحفظ ذلك التصوّر في خياله

ويَفْنَى في وجود الشيخ بكلّيته، ثم يتوجّه من وجود الشيخ إلى الله تعالى ويتكلّف ذلك ويكرّره مرّة بعد أخرى إلى أن يُشْرِق النور الإلٰهيّ على لطيفته إشراقًا يكشف الغطاء عن أسرار المعاني، فيكون بالله لا بغيره ولا بنفسه، انتهى.

والكلام في الرابطة لا نهاية له، وفيما ذكرناه كفاية للموفّق، فتأمّل بفِهْمك وميّز علمهم من علمك وانظر هل حصل لك من العلم ما حصل لأدناهم؟ وهل وجدت من اليقين ما وَجَد أدنى من والاهم؟ هَيْهات هيهات كما لا يستوي ساسة الحمير وأصحاب الملوك، كذلك لا يستوي أهل الشهوات وأتباع أهل السلوك. **أشعار**:

هُمُ القَوْم إنْ تَجْهَل وإنْ كُنْت تعلم
لقد شَهِدُوا المحبوب والناس قد عُمُوا

إلى الله فرّوا بالقلوب ليحصلوا
لديه فيا بُشْراهم حين يسْمُوا

لهم هِمَمٌ لَمّا تَزَلْ تعتدي بهم
إلى رُتَب يَسْمُو إليها التقدُّم

فَهُمْ بين سُلّاك الطريق إلى الحِمَى
وبين أخي وجد يشيب ويَهْرُمُ

وبين أخي سكر وذا والِج الفنا
وبَيْن أخي فِكْرٍ يغيب ويُلْجَمُ

وبين أخي صَفْوٌ وهذا مُشَرَّفٌ
وبين أخي مَحْوٌ وهذا مُكَرَّمُ

وبين أخي سَعْيٍ وبين أخي هَوًى
وبين أخي دَهْشٌ وهذا مُهَيَّمُ

وبين أخي شوقٌ وبين مُتَيَّم
وبين أخي ذوقٌ يَنم ويَعْظُمُ

فهذا لسب[1] مثل ماذا مُدَلَّهٍ[2]
وهذا سليبٌ مثل ما ذاك مُغْرَمُ
تَجارُوا إلى محبوبهم وتسابقوا
وقاموا على الأقدام والنَّاس نُوَّمُ
إذا ذُكِرَ المَوْلَى تَطِيش عُقُولهم
وذا الطَّيْشُ أهْنَى العَيْش لو كنت تَفهمُ
سَوَاءٌ عليهم إنْ قدَحْتَ وإنْ مَدَحْ
تهم إنما القوم الألى في الملا هُمُ
رَضُوا عَنْك في الحالين إذ أنتَ عبد مَن
أحَبُّوا وكلَّا يَصْدر السوء منهمُ

فاعلم ذلك وإياك في الطعن على أهل هذه المسالك، فإنه يُوقع في المهالك، والله يتولّى هداك.

---

(1) اللَّسْب: اللَّسْع واللَّدْغ بمعنى واحد. ولَسِبَ بالشيء: مثل لصب به أي لزق. ولَسَبَه أسواطًا أي ضربه، ولسِب العسلَ والسَّمْن ونحوه لسبًا: لعقه. (لسان العرب).

(2) المُدَلَّه: الذي لا يحفظ ما فَعَل ولا ما فُعِلَ به.

الباب السابع

في نُصح المُنكِرين الخاصّ والعامّ، لحصول حُسْن الختام، فإنما الأعمال بالنيات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ [التحريم: الآية 8].

واعلم أيها الأخ أن الدين النصيحة، وأن من أفرض النصائح أن ينصح الإنسان نفسه ولا يُدْخلها مداخل السوء ولا يُلْقيها في مهالك الإنكار على أولياء الله، فإن كان إنكارك عن جَهْلٍ فيجب عليك التثبُّت أولاً ومطالعة كُتب العلماء المشتملة على سِيَرهم وإرشادهم وتعبّدهم، ويُحرم عليك إنكار ما لم تعلم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: الآية 36]، وقد آل الأمر إلى أن الأمور ثلاثة: أمرٌ تبيّن لك رشده فاتّبعه، وأمرٌ تبيّن لك غيّه فاجتنبه، وأمرٌ اختُلِف فيه فأرجعه إلى عالمه، هذا وما أنكرته غير مختلف في صوابه، وإنما عليه جمهور العلماء العاملين، فيا ليت شعري إنكارك هذا على الإمام سفيان أم على جنيد سيّد الطائفة! أتُنكر على من لم يعمل إلّا بنصوص أهل مذهبه وأهل مذهبك، ولم يسلك إلّا سبيلهم؟ وقد أوردنا كلامه وأريناكه لتعلمه، وهم أكابر العلماء وأهل السياسة والحُكَماء وأهل السيادة والأُدباء وأهل العبادة والنُّجباء، أترى يترك الغزالي والفخر الرازي وأبو الحسن الشاذلي وابن عطاء الله وابن داود والشعراني وابن حجر ونحوهم، ويصار إليك؟ ما أظن ذلك، وما أرى من يترك قولهم ويأخذ قولك ويدع سيرتهم ويتّبع سيرتك إلّا معتوهًا قد ذهبت حُجاه أو شقيًّا مُتَّبعًا هواه، قد أضلّه الشيطان وأغواه وبلغ منه مُناه، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ألا أخبرك بما آل بك الإنكار إليه، لقد صدر منك أنك قلت: ينبغي أن يجعل الله بين عينيه بدل الرابطة، فأقول: إن كنت تعتقد أن الله شبه شيئًا من خَلْقه الدالّ عليه قولك: بدل الرابطة، فأنت مُجَسّم أو أنه لا يخلو من كينونته في شيء، أو على شيء، فأنت حلوليّ أو جَهْوِيّ تَعَالى الله تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، أو إن كنت تقصد أنه سبحانه مُنَزّه عن المكان وأنه ليس كمثله شيء، وأن كل ما يخطر بالبال فالله بخلافه؛ فاعلم أن الرابطة يتصرّف فيها عاملها ويقرّرها تارة جالسة، وتارة قائمة، وتارة قارّة مارّة، وكيف شاء وذلك على الله مُحال، وأنك قد أخطأت في التعبير وأسأت في التقدير، فأين تنزيهك لمن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؟

ألا أُنبئك بما أوصلك الإنكار إليه حرّرت قراطيس ووصّيت أباليس يَصُدُّون المسلمين عن هذا الأمر النفيس الذي من لازم المُتَلَبّس به التسبيح والتقديس وصلاة الليل وصلاة الضحى وإحْيَاء ما بين العشاءين والطلوعين مهما أمكن، وذكر الله على الدّوام والكَفّ عن أكثر الآثام إنْ لم يكن عن جميعها، فانظر كيف نصحت أمّة محمد ﷺ بإبعاد أُمّته عن سنّته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: الآية 27]، أفلم يدبّروا القول بل جاءهم الحقّ، بل أتيناهم بذكرهم وإنك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيم، أم على قلوب أقفالها، أترى رسول الله ﷺ يرضى عنك بهذا؟ فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، هذا تنبيه وتذكرة وما يتذكّر إلّا مَن يُنِيب.

ألا أدُلّك على ما هو خيرٌ لك من إنكارك الطريقة وأورادها؟ الإنكار على من يرتكب الكبائر المُجْمع على تحريمها وأنت تراه في بلدك مُقْبِلاً ومُدْبِرًا وتسمعه بإذنك ليلاً ونهارًا، وإنكار ذلك واجبٌ عليك، فانظر كيف تركت الواجب واشتغلت بما لا يعنيك، بل يَسُوؤك ويعيبك.

ألا أدُلّك على ما هو واجب من هذا أيضًا؟ أن تأمر أهلك بطاعة الله وترك معاصيه وتُعَلّمهم ما يجب عليهم من أمور دينهم قبل أن يُطالبوك يوم القيامة، فإنهم رعِيّتك وأنت مسؤول عنهم، فإهْمالك إيّاهم دليل على عدم ديانتك.

ألا أدُلّك على ما هو أعمّ من هذا؟ أن تَحْجر نفسك عن معاصي الله وتكفّ جوارحك خصوصًا لسانك الذي يكبّك في قَعْر جهنّم، مَنْ كَثُر كلامه كَثُر سَقْطه، ومَنْ كَثُر سَقْطه كَثُرَتْ ذنوبه، ومن كَثُرت ذنوبه كانت النار أَوْلى به، فكم من فِرْية حقّقتها وكم خديعة دقّقتها، وكم غيبة رقّقتها، وكم طعن أشعْتَه، وكم زورٌ أذعْتَه، وكم عَوْرة كَشَفْتها، واذكر يوم تَشْهد عليهم ألسنتهم، ويودّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا.

ألا أدُلّك على أدقّ من هذا؟ طَهِّرْ قلبك من الخديعة والخيانة والغِشّ والحقد والحسد والطمع والرِّياء والعجب وحبّ التكاثر والمُباهاة والفخر والكبر الذي حمَلَك على عدم تسليم الحقّ لأهله. قال في الإحياء: من لم يكن له نصيبٌ من هذا العِلْم أخاف [عليه] من سوء الخاتمة، وأدنى النصيب التّصديق به وتسليمه، والرابطة من جُمْلة مسائل هذا العلم، ولكنّك تطالع في باب النّزاع وهي ليست فيه، إنما هي في جملة الخبر وصلة الموصول والعائد معلوم؛ إذ هو مفهوم المنطوق، ومنطوق المفهوم كأنك تطالع في باب الزكاة وقسم الصدقات والوقف ليست هي هناك، إنما هي في باب الطهارة وأركان الصلاة أشرفها الطمأنينة، كما أن الحجّ الوقوف بعرفة، ولعلّك تُطالع في باب النون فصل الجيم، وهي في باب الهمزة فصل الدالّ، فدَعْ الجدال واسمعْ هذا المقال: العلم عِلْمان: عِلْمٌ في القلب، فذاك العلم النافع، وعِلْمٌ على اللّسان فذاك حُجّة الله على ابن آدم. شعر:

شَكَوْتُ إلى وَكيع سُوء حِفْظِي ... فأرشَدني إلى تَرْكِ المَعَاصي
وقَال اعْلَم بأنّ العِلْم نُورٌ ... وعِلْمُ الله لا يُؤْتَى لِعَاصِ

ولو أنّ العِلْم المراد والمُعَبّر عنه بالنور هو ما حصل لك لكان كثير من أهل الاعتزال أَوْلَى به منك، فإن منهم من هو أكثر منك عِلْمًا وأثْقب فَهْمًا وأسْرَع تقريرًا وأنْصَع تحريرًا، إنما هي نفسٌ انتقشت فيها بعض الرسوم واشتغلت عن الحيّ القَيّوم، فاتْرُك الإنكار بتة قد عَلِمْنا ما جهلته، وعَرَفْنا ما عرفته، من بسيط ومُهَذّب ولهما والله زبدة تطلب المعبود وحده وتَدَعْ كل مودّة شغلت عن ذلك. شعر:

أمَا والذي قد أوْجب النُّصح أنني ... مَنَحْتُك مَحْضَ النُّصح فاغْنَمه تَهْتَدِي

وكُنْ مستفيدًا ما مَنَحْتُك شاكرًا صَنِيعي ولا تَكْفُر جَميلي فتَعْتَدي
فـإن لأهْـلِ الله أعْـظَـم حُـرْمَـة متى ينتقصها المَرْء بالسُّوء يُقْصَدِ
فيَحْيَى حياةً بالمعاصِي مَشوبة ويَسْكن في دار المشين في غدِ
فيا وَيْل عبد يَدَّعي الرُّشْد وهوذا يَرُوح يبغض المُتقين ويَغْتَدي
ويَخْتال في ثوب الغِواية مُعْجبًا وهَيْهات من يرشد عن الغَيّ يَبْعد
إذا ما رمى أهل العبادة بالقلى وبارز أهل الله بالكلم الرَّدِي
فقد حاربَ المعبود فالله خَصْمه فيُلْبِسه ثوب الشقاء المُجَرّد
فيا لغرور جَرَّ صاحبه إلى شرورٍ فَجِدْ عنه وقارِبْ وسَدِّدِ

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي في رسالته «قمع المعارض»: هذا ما اخترته من المقال مما يناسب المقام، والتقطته من المظانّ لهذا النظام، تنبيهًا على مقام الأولياء وإشارة إلى علوّ رُتْبة الأصفياء، وتحذيرًا مما تأتيه طائفة الأغبياء الظانّون أنهم في عِداد الأذكياء القادحون بأفهامهم الفاسدة فيما لا يفهمون، والخائضون بقِلّة تقواهم فيما لا يعلمون، لا هُمْ وقفوا عند نصّ القرآن، ولا هم امْتَثلوا ما رُوِيَ عن سيّد ولد عدنان، ولا هم عملوا بما قرّره أئمّة الشان، ولا هم جَنَحُوا إلى طريقة جارية على قانون الحقّ والعرفان، قال الله تعالى فيما روي في الأحاديث القُدْسيّة بين حُفّاظ الشرق والغرب: **«من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»**[1]، وفي لفظ: **«من آذى وليًا فقد استعجل محاربتي»**[2]، وأنّى له بالسلامة. وفي حديث مرفوع: **«من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة»**[3]، رواه أهل الأمانة. وفي آخر قُدْسِيّ: **«مَن أخاف وليًا فقد بارزني بالعداوة، وأنا لثائر لأوليائي يوم القيامة»**[4]، وفيما أوحى الله إلى موسى

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب مَن جاهد نفسه في طاعة الله، حديث رقم (6137) [5/ 2384].

(2) لم أجد هذا اللفظ فيما لديّ من مصادر ومراجع.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (4) [1/ 44]؛ وابن ماجه في سننه، باب مَن تُرجَى له السلامة من الفِتَن، حديث رقم (3989) [2/ 1320]؛ ورواه غيرهما.

(4) ورد بلفظ: «مَن أهان لي وليًا فقد بارزني بالعداوة....» الحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة، حديث رقم (7880) [8/ 221]؛ وروى نحوه ابن أبي الدنيا في الأولياء، حديث رقم (115) [1/ 47].

عليه السلام: «من أهان وليًا أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة وباراني وعرض لي نفسه ودعاني إليها وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي يُحاربني أن يقوم لي أو يظنّ الذين يعادينى أن يُعْجِزني، أو يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني، وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة، لا أكِلُ نصرتهم إلى غيري»[1]، انتهى.

فقد أوضحنا لك القول المُبين، وأفْصَحْنا عن الحقّ المستبين، فادفع الشكَّ باليقين، وراجع أصول هذه النقول وتثبّت بما تقول، فما بعد العين ما يقال، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال؟ فارحم نفسك واستغفر عمّا أودعت أمْسك واتْرُك أهل الشُّكوك والظنون، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: الآية 91]، وهذا آخر ما قصدته من المقال العريض المري المقبول لدى كل مؤمن عن قميص الهوى عَرِي، ومن خُبْث الباطن بَرِي، وأنا المسكين الضعيف حسين الدوسري غفر الله له ما مضى ومنَّ عليه بالرضى، إنه خير مسؤول وأكْرَم مأمول وصلّى الله على سيدنا أفضل رسول وعلى آله وأصحابه أهل القُرب والوصول ما تعيّن الحق وتبيّن الصِّدق، آمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«تعريب فقرات الخواجة عبيد الله أحرار قدّس سرّه»:

يا من شرح صدور العارفين بتجلّيات جلاله، أعِنّا على ذِكْرك وشكرك وأغْرِقْنا في لُجّة بحر برّك، فنحمد ربّنا غوّاصين بحار إظهار صفات كماله، لا نُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، صلّ بجلال قدسك على أكرم حامدٍ لك محمد أحمد محمود من جِنّك وإنسك وأوحد موحد تجلّيت عليه بهيبتك وأنسك، صلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى سائر بيت مقدس سيما على آله وصحبه أركان البيت الأقدس.

---

(1) أورد السيوطي في الدّرّ المنثور، تفسير قوله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: الآية 21] [5/557]؛ وابن كثير في تفسيره، آخر تفسير سورة... ، [3/147].

وبعد؛ فإن الله تعالى أوجد العالم لآدم، وأوجد آدم للخاتم، وأوجد الخاتم لنفسه، فجعل الكلّ مُظْهِر وَصْفه، مُشْرِقًا عليهم من سماء التوحيد بشُعَل شمسه، فظهر شروقه ظهور الذرة والهباء بالشمس الذي هو في رابع السماء، فكما لا يمكن إدراك الذرّة إلّا بدخول الشمس من الخوخة، فإن الشّعاع إذا دخل منها تقوم الذرة عليه في هيئة خيط بمقدار وَسْع الخوخة وضيقها، كذلك الذرّة التي كانت في عالم العَمى إذا ذابت بإشراق الحقّ حين نظر إليها، قال الله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فُصّلَت: الآية 11]، فتحقّق منها الجهات الستّ المُنَزّه باريها عنها، فقال لها وللأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصّلَت: الآية 11]، فما ظَهر من الوجود ليس إلّا من ذَوَبان الذرة على نفسها من هيبة نظر الناظر الباطن الظاهر والعلويّات كلها بمنزلة الخيط الشعاعي إلى أبدي الظُّهور، وإن اختلفت النشآت بظهور مقتضيات المتقابلات.

فالخوخة التي لا تسدّ في النشأتين هي الحقيقة المُسَمّاة بحقيقة الحقائق، وهي الحقيقة المُحمديّة عليها أفضل الصلوات وأكمل التحيّات، وخَيْط الوجود ذات السيالة قائم بالشعاع المحمّدي في كل بيت مُقَدّس من آدم إلى انقراض هذا العالم بانعدام البيت الذي يَصْلُح لأن يكون مكان الخوخة المذكورة نبوّة وصدّيقية، فإنّ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مُقَدّسون قلبًا وقالبًا عن التوجّه إلى غير الله، فقلوبهم بيوت الحقّ في النشأة الدنيوية والكتب المُنَزّلة عليهم مأدبة الحقّ ومائدته، ولسانهم هو الدّاعي إلى الله سراجًا مُنيرًا، ولا تُرْفع مائدة إلّا بوضع الأخرى، قال الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البَقَرَة: الآية 106].

فالشرائع السالفة نُسِخَت بالمائدة المحمديّة والبيت المُحمّدي كان أعظم البيوت المُقَدّسة؛ لا جرم نزلت مائدته أعمّ الموائد، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سَبَأ: الآية 28]، فلا تُرْفع مائدته أصلاً، بل يُوضع طعامٌ بدل طعام آخر، والمائدة بحالها رحمة من ربّه وفضلاً، كما أن موائد الأنبياء عليهم السلام انتهت، فلا يُؤكل عليها إلّا طعام يخصّ بها، كذلك ينبغي أن يغلب الطّاعم القدر المشترك من المطاعم في جميع الموائد عليها، فيَطْعم منها كما يُطْعم وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم، فالحمد لله الذي جمع بين النبيّ والصّدّيق

﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية 40]، فالمائدة نَحمد الله ممدودة، ولكن لا يَطْعَمُها إلّا كل صدِّيق يَصْلُح أن يكون لمن أنزلت هي عليه صدِّيقًا، وفي الهجرة إلى الحقّ عن الباطل في جميع الأحوال رفيقًا شفيقًا، واختصاص أبي بكر بالنبيّ ﷺ من بين الأمّة لأنه رأس الصِّدِّيقين ورئيسهم، وما زُفَّت المائدة المُنْزَلة على محمد ﷺ إلّا في زمنه، وآمن الناس به ثانيًا بعد ارتدادهم وقاتل من فرّق بين الصلاة والزكاة، حتى قال: لو منعوني عَناقًا كانوا يُؤَدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها، فأيّد الدين بعد انْهِدامه بقتاله أهل الردّة ومانعي الزّكاة، قال عليه السلام: «نحن نقاتل على التنزيل وأبو بكر يُقاتل على التأويل»، ومعناه بيان مقتضى المقامين من النبوّة والصِّدِّيقيّة لا الحصر، كما يدلّ عليه ورود الخبر الصحيح في مقاتلة أبي تراب رضي الله عنه مع البغاة أيضًا، فكلّ مَن كانت هِمّته تأييد الدين فهو صدِّيق زمانه يَطْعم من المائدة سواء طَعَم غيره أو لم يَطْعَم؛ إلّا أن الصِّديق لأهل زمانه لا بدّ وأن يسعى إطعام غيره أيضًا.

والأولياء كلّهم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: الآيات 36 - 38]، وهؤلاء الصِّدِّيقون قائمون على المائدة إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَنْ عليها تُمَدّ المائدة على قلوبهم التي لا يَسَعها غير الله فَيُلْهِم التعرّض في أيام دهرهم للنفحات الربّانية امتثالاً لقوله عليه السلام: «**إنّ لِربّكم في أيام دَهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لها**»(1)، ولا يتعرّض لها إلّا الرّاسخ في العلم، فإنهم من أهل التأويل؛ إذ ليس لقلبهم متعلّق سوى التفادي بأرواحهم للحبيب الحقيقي من فَرْط الحبّ، كالصِّدِّيق في الغار، وأبي تُراب في الفراش، والطريق إليه ﷺ بعده مُنْحصِرٌ في هذين؛ لهذا يدلّ على ذلك أمره عليه السلام بسدّ الخوخات إلى المسجد إلّا خوختيهما أو خوخة أحدهما.

---

(1) وتتمته: «لعلّ أحدكم أن تصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبدًا». رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب مَن اسمه إبراهيم، حديث رقم (2856) [3/ 180].

وسلسلة المشائخ كلّهم منتهية إلى النبيّ ﷺ من طريق أبي تراب رضي الله عنه، إلا سلسلة الذهب وهي للنقشبندية، فإنها واصلة إلىٰ النبيّ عليه السلام من طُرُقٍ أربع، **أحدها**: إلى الخضر عليه السلام، **وثانيها**: إلى الصّدّيق من طريق الإمام جعفر رضي الله عنه، فإنه أخذ من جدّه قاسم بن محمد، والقاسم أخذ من أبيه محمّد، ومحمد أخذ من أبيه أبي بكر رضي الله عنه، **وثالثها ورابعها** إلى عليّ كرّم الله وجهه من طريق سيّد الطائفة الجنيد وطريق سلطان العارفين أبي يزيد البسطامي، ولأجل هذا سمّيت هذه السلسلة بسلسلة الذهب، وفُضّلت على غيرها من النُّسَب.

وأسود غابات التأويل كلّهم مُطَوّقون بهذه السلسلة العظيمة التي هي إدراج النهاية في البداية، فيذوق المبتدىء فيها ذوقًا من غيب الهويّة، ولا يحصل في غير هذه الطريقة الذوق المذكور إلّا بعد الرّياضات الشاقّة، وربما أيضًا لا يحصل بعدها، والسرّ في ذلك أن الأسد من شأنه أن يَصْطاد فيَطْعَم ويُطْعم غيره، ولا يطوّق بسلسلة الذهب إلّا الأسود، والمنتهي في هذه السلسلة هو المطوّق بها، فهو في صيد الحقائق والمعارف أسد المعارك في وقته يَطْعَم ويُطْعِم، كما كان وحيد زمانه وفريد أوانه وأعرف العارفين بالله في دورانه، تغمّده الله بمغفرته ورضوانه ونعّمه بمشاهدة جماله في أعلى جنانه، حيث فني عن حظوظ نفسه وغني بما كان يومه خيرًا من أمسه، أنعم الله عليه بجلائل نِعَمه الصورية والمعنوية وفضائل حكمه الدنيوية والأُخرويّة، فكان يتعرّض لنفحات ربّه في أيّام دهره صائدًا لغزلان عوالم الغيب بمخالب المشاهدة والعيان، قائدًا لها إلى مضيق الشهادة بمساعدة فرسان البَيان معجزًا للفرس كلّهم بفروسيّته فعجزوا عن تحدّيه ولو في أدنى عبارة الميدان، وانتفعوا بموائد بيانه على قَدْر أذهانهم واحتظّوا بعوائد عيانه بعد طلوع بدر برهانهم، فاقتضى الحال أن ينتفع بها العرب كانتفاع العجم ليتحقّق بين الفريقين أنه كان ليث هذه الأجَمّ، كان على الحقيقة بيانًا للشريعة والطريقة، فما كان المُسَمّى غاصب الاسم توجد في طريقته الأنيقة.

حريٌّ أن يَعُمّ الناس طرا بشرْعَتِه وهي له سليقه
حُسَام الحقّ مَسْلول من الغمد ضياء الصِّدْق أظهر لي بريقه

كــلام الله فــرقــتــه ثــلاث ... فـمـيّز أنـت مـن كـل فـريـقـه
طريق أبي تراب كان يمشي ... كصديق له في الحبّ ليقه
ولا تتعب بتمييز الخلائق ... فهم يأتوك من مدن سحيقه
وأنت الكعبة العظمى بحقٍّ ... حقيقٍ أن تُطاف على الحقيقة
فذُقْ طَعْم المعارف كي تجدها ... فقد ذاقَ الصّفا مَنْ ذاقَ ريقه
وهـذا ريـق مـولانـا عـبـيـد ... لسانُ الفرس وهي لنا وثيقه

ذوقها لأبيه بالتماسه لذلك، فأدرج فيها الوصول إلى المقصود بأقرب المعالج والمسالك، فنقول: إنه يقول: سبب هذا التأليف المختصر أن والدي رزقه الله وإيّانا العمل بما فيه بناءً على حُسْن ظنّه بهذا الفقير أمرني لما رجعت من الغُرْبة إلى وطني أن أكتب له شيئًا من كلام أهل الله يكون العمل به سببًا للوصول إلى المقامات العَليّة والعلوم الحقيقية الخارجة عن طَوْر النظر والاستدلال، قال عليه السلام: «**من عَمِل بما عَلِم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم**»[(1)]، فوجب امتثال أمره على هذا الفقير؛ لأن الأدب مع الحضرة الربوبية تقتضي الأدب معه، إذ الوالد واسطة وصول أثر ربوبية الحقّ جلّ وعلا إلى الولد.

وقال بعضهم في بيان الحقيقة: من آداب المرء مع الحضرة الربوبية تعظيم المظاهر التي قَبِلت أثر الربوبية لأنهم مظاهر تلك الأثر مثل الأب والأمّ وسائر من هو من قبيلهما؛ إذ هذا التعظيم راجع إلى الربّ حقيقة، وإليه يرجع الأمر كلّه، فامتثلت أمره وذَكَرْتُ في هذا المختصر ما يكون سببًا لحصول المعرفة المطلوبة من الإنسان، فالملتمس من الناظر فيه أن لا يُسْنِد الكلام إلى مؤلّفه، بل يراه في قبضة تصرّف الحقّ جلّ ذكره، كالقلم في يد الكاتب، فإنه إذا لم يَنْسُب الأمر إلى مُؤلّفه دخل في زُمْرة الذين علومهم حاصلة عن الحقّ بلا واسطة؛ لأن الوجود المجازي عندهم في حُكم العدم، كما قال بعض العارفين من أصحاب العيان مخاطبًا لأرباب النظر والبرهان: إنكم أخذتم علومكم ميتًا عن ميت، ونحن أخذنا علومنا من الحيّ الذي لا يموت، ومن كان وجوده

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2542) [2/ 347].

مُسْتفادًا من غيره فحكمه عندنا حكم اللاشيء، فليس للعارف مُعَوّل غير الله قطعًا، وبالله أستعين وعليه أتوكّل ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية 56]، قال المفسّرون: المراد بالعبادة هٰهنا هي المعرفة؛ إذ العبادة بحسب تبادرها إلى الفهم تتعلّق بأعمال الجوارح، ولو حُمِل إلى ما هو المتبادر منها لا يَسْتقيم المَعْنى؛ إذ الغرض والغاية من خَلْق الخَلْق ليس مُجرّد الأعمال الظاهرة، بل الأعمال الظاهرة تابع للمعرفة، والمعرفة هي المقصودة بالذات، وبعض الصوفية أراد العبادة بالمعنى الأعمّ؛ إذ العبادة عندهم تشمل الأعمال الظاهرة والباطنة، والمَعْرفة عمل القلب، ولا حاجة إلى التأويل.

والمُحَقّقون متّفقون على أن المعرفة لا تحصل إلّا بمتابعة النبيّ ﷺ، ومتابعته موقوفة على العِلْم بما يجب متابعته فيه، فاعلم أن للنبيّ عليه السلام قولاً وفِعْلاً وحالاً، فالقول يتعلق بلسانه، والفعل يتعلق بظاهره، وحاله يتعلق بباطنه، فمتابعته ﷺ في قوله أن لا يجري على لسانه ما يخالف شرعه عليه السلام، مثل الغيبة والكذب والكلام الذي فيه إيذاء للمسلم وغير ذلك، وأن يتكلّم بما يكون سببًا لنورانيّة قلبه مثل قراءة القرآن والأدعية المأثورة عن النبيّ عليه السلام ويُرَغّب عباد الله إلى شريعته، ويجب أن يكون في قراءة القرآن والأدعية بحيث يُعَبّر بلسانه عمّا في قلبه، فإنه لو لم يكن كذلك كان شاهد الزّور.

هذا إذا كان عالمًا. وأمّا إذا كان أُمّيًا، فليعتقد بقلبه أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ فيشرع في قراءته بالتعظيم وحضور القلب بملاحظة عَظَمة ربّه الكريم ومتابعة فعله عليه السلام، وأن يُزَيّن ظاهره بشريعته، ولا يترك سُنّته وآدابه، فإنه بمقدار ما ترك منها ينقص من دينه، وأيضًا متابعته عليه السلام في فعله بمعاونة الإخوان المؤمنين بيده وسائر الجوارح فيما يحتاجون إليه كلّه موجب صفاء ونور خصوصًا إذا كانت معاونته في قضاء حوائج المتوجّهين إلى جناب الحقّ سبحانه؛ لأن الله تعالى أظهر هذه الطائفة لمحبّته، فيحبّ منهم دوام التوجّه إليه، إذ قلبهم في حالة التوجّه إلى الحقّ مرآة مصقولة يظهر فيها جماله، وقد يقع لهم التوجّه بواسطة البشرية إلى الأكل والشرب واللباس وغير ذلك، فيتكدّر

باطنهم بمقدار تعلق ظاهرهم بالأمور المذكورة اللازمة لهم بالضرورة، وبمقدار ذلك الغبار يحجبون من مشاهدة جماله.

فصاحب الدولة الذي وفّقه الله لكفاية أُمورهم الضرورية له نصيب تامّ من معانيهم ضرورة؛ إذ كفايته لأمورهم سبب رجوعهم إلى حالهم من مشاهدة الحقّ، فكأنه هو الذي وجّههم إلى الله بالدوام، وأحسن من هذا في تحقيق هذا الكلام أن يقال الموفق لقضاء حوائج المتوجّهين إلى الله إنْ كان شاكرًا لربّه بما أنْعَم عليه من التوفيق المذكور، فهو مُظْهِر اسمه الكافي تبارك؛ إذ الشكر منه يدلّ على أنه ما أسند الأمر إلى نفسه، حيث قال: الحمد لله الذي جعل كفاية أُمور وليّه على يدي، فهو مُتَخلّق بالاسم الكافي، وورد الحديث النبويّ: أنّ «من تخلّق بخُلقٍ من أخلاق الله فهو مُحرّم على النار»[1]، ولباطن النبيّ ﷺ مراتب من النفس والقلب والسرّ وغيرها، وقد أعطاه الحقّ عزّ اسمه بحسب كل مرتبة منها كمالاً يناسب تلك المرتبة، ويجب على المسلم متابعته في تلك المراتب ولا تتيسّر المتابعة المذكورة إلّا بالوقوف على آدابها ومعرفة آدابها على حسب الكمال، ليس في وِسْع أحد من الأنبياء والأولياء، ولكن للمجتهد فيها على قَدْر حاله من تلك الكمالات نصيب.

فمتابعته في مرتبة نفسه أن يُخالف هواها مُلْجِمًا لها عن المَيْل إلى خلاف الشرع، فإذا داوم على هذا تحصل لنفس المتابع مناسبة تامّة بنفسه عليه السلام، وبقدر المناسبة ينجذب نفس المُتابع من نفس المَتْبُوع مثل الفتيلة التي تَجْذُب النار إلى نفسها بواسطة دخان الزيت، فيترقّى عن درجة التقليد بقدر انْجذابه عن صفات النبيّ عليه السلام، وقِسْ على هذا متابعته له في سائر المراتب لتحصيل الكمالات المناسبة لتلك، وإذا كَمُلَت المناسبة بينه وبين النبيّ عليه السلام بواسطة المناسبة حقّ للمرء أن يكون محبوبًا لله تعالى، قال الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 31]، فيطلعه الحقّ على أسراره في الملك والملكوت.

---

(1) يشير إلى قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا مَن أحصاها دخل الجنة». رواه البخاري في صحيحه، باب إن لله...، حديث رقم (6957) [6/ 3691]؛ ومسلم في صحيحه، باب في أسماء الله تعالى...، حديث رقم (2677) [4/ 2063]؛ ورواه غيرهما.

وهذه المحبة عائدة إلى النبيّ عليه السلام؛ إذ اتّصافه بأوصاف النبيّ عليه السلام سبب لها، وإنْ كان استعداده لذلك الاتّصاف محض فضل الله وكرمه، ولو أبصرت بعين الحقيقة وجدت الحقّ هو المحبوب لذاته، وهو المُحِبّ أيضًا ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية 54] كلام له، فلا يحبّ سواه؛ لأنه العلّة، إذ صاحب الجمال لا يحبّ المرآة لذاتها، بل لأنها آلة لمشاهدته لجماله، والحقّ سبحانه وتعالى في مرآة وجودات الأنبياء والأولياء بمقدار استعدادهم يتجلّى بذاته وصفاته، وكل مرآة صقالتها بحسب الاستعداد أكثر، فالتجلّيات فيها أتمّ وأظهر، ولهذا وقع التفاضل بين الأنبياء بعضهم على بعض إشارة إلى ما قلنا من التفاضل، ولما كان استعداد المرآة المحمديّ ﷺ أكمل من المجموع؛ لا جرم ظهور آثار التجلّيات بحسب الذات والصّفات فيه أتمّ من الكل، وأمّته بواسطة متابعته لهم منها نصيب تامّ، فألْبسوا لذلك من الله تعالى خلعة الخيريّة بالنسبة إلى الأمم المتقدمة كما قال الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 110]، ومن هٰهنا قال عليه السلام: «**ولقد تمنّى اثنا عشر ألف نبيّ أن يكون من أُمّتي**»[1]؛ إذ علم المتمنّون أن حصول تلك المراتب العَليّة موقوفة بمتابعته عليه السلام، فعلوّ هِمَمهم اقتضى أن يكون لهم الكمال الموقوف بمتابعته، فتمنّوا أن يكونوا من أُمّته.

وإذا علم أنه لا تُنال مرتبة من مراتب الكمال إلّا بمتابعة النبيّ عليه السلام، فيعلم أيضًا أن متابعته ﷺ على حسب الكمال، إنّما هو بكون القلب مُنَزّهًا عن التعلّق بغير الحقّ سبحانه منقطعًا عن العلائق البدنيّة والعوائق الكونيّة بالكلّية، وانقطاع القلب عن غير الله لا يحصل إلّا بلسع حيّة الحُبّ لكَبِده المشويّ بنار الشوق والقلق والمحبّة، وإن كانت من المواهب لكن ظهور هذه الموهبة بالتدريج موقوفة على حصول شرائط ملاكها تخلية القلب عمّا سوى المحبوب الحقيقي.

وللوصول إلى حصول هذه الدولة العُظمى طريقة ما سلكها أحد إلّا وصل المقصود، وهي أن يذكر اسم المحبوب الحقيقي ابتداء بلسانه ويحضره

---

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لديّ من مصادر ومراجع.

بقلبه مُنَزِّلاً اسمه على مسمّاه المحيط عِلْمه بالأشياء من غير فتور في هذا الذِّكر حتى يَغُوص حديث النفس في القلب بذكره، فإذا رأى قلبه ذاكرًا للمحبوب، وانحصر في ذكره حديث النفس ينبغي أن لا يرضى بذلك، فيترك الذِّكر، بل يداوم على الذِّكر حتى يلتذّ قلبه من ذكره، فيترقّى بالمداومة المذكورة أيضًا إلى أن ينقطع قلبه عن الالتذاذ بغيرها من سائر اللّذّات الدنيويّة والأخرويّة، فلا يبقى لقلبه متعلق سواه، فيكون كلّه مشغولاً، بحيث لو أراد أن يحبّ غيره ولو بالتكلّف ما يمكن من ذلك، والمكالمة والمُناجاة اللّتان يحصلان للسّالك إنما هما في هذه الحالة، فيصير بحيث لو تكلّم مع أحد كان الكلام معه، وكذا لو نظر إلى أحد كان ناظرًا إليه، وهذا هو الحضور المُنَزَّه عن الغيبة المُعَبَّر عنه في الحديث القُدُسي بقوله: «**ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وعقله الذي يعقل به**»[1]، فحينئذٍ لا تمنعه الأشغال الصوريّة الضرورية عن هذه العلاقة الحبّية المعنوية؛ إذ تمكن باطنه عن مناجاة الحقّ وهو بظاهره مع الخلق، فهو كائن بائن، وهذا المعنى عبارة عن بلوغ السالك؛ كما قالت رابعة رضي الله عنها: شعر:

ولقد جَعَلْتُكَ في الفُؤاد مُحَدِّثي وأَبَحْتُ جِسْمي مَن أراد جُلُوسي
فالجِسْم منّي للجليس مؤانسٌ وحبيب قَلْبي في الفُؤاد أنيسي

فصاحب الدولة الذي حصل له في الدنيا هذا التعلّق الحبّي بالحقّ سبحانه إذا فارق روحه من بدنه يحصل وصال واتّصال دائمين بربّه، فإن القلب الذي شغفه الحبّ، وإنْ كان واصلاً إلى محبوبه في هذا العالم، ولكن يقع عليه حجاب رقيق لأجل المقتضيات البشريّة، فلمّا انقطع الروح عن الجسد زال ذلك الحجاب بالكلّية؛ إذ زوال العلّة التامّة للشيء يستلزم زوال معلولها والجسد علّة الحجاب الرقيق، وقد زالت مزاحمته لروح المحبّ المذكور بالموت الطبيعي، فلا حجاب لهذا الروح بعد الموت أصلاً.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

تمثيل: إذا أردنا أن نشغل أناسًا بمحبة محبوب، فطريقه أن يَبقى في الحارة الفلانية محبوب كذا وكذا نعته مما يستلزم التوجّه إليه، فينبغي أن تحبّه لأنك إذا أحببته تلتذّ بمحبّته فتفوز بوصاله، والإنسان مجبول بمحبّة ما يلتذّ منه، فيميل قلبه بمجرّد سماع نعته إلى محبّته، ولكنه ما يعرف طريق تحصيل هذه السعادة، فالطريق له أن يقصد له ما يمكنك الاستعداد بها إلّا بأن تكثر من ذكره وتزجر قلبك عن الاشتغال بغيره، فيميل إليه قلبه، وإذا داوم على الذكر يزيد الميل فليتذّ قلبه من هذا الميل بازدياد اللذّة إلى أن تستحكم العلاقة التي هي الارتباط الحبّي، فلا يبقى في يده زمام اختيار القلب؛ إذ شغفته محبّته، فحبّه سواء أراد أو لم يُرِد، فلا تَسَعْ القلب محبّة الغير، بل لا يَسَعَهُ الاشتغال باسم المحبوب، فينسى الاسم من غَلَبة المُسَمّى عليه، ويترقّى من هذا الحال إلى مرتبة استيلاء نفس الحبّ، كما قال العامري لليلى: دعيني فقد شَغَلني حبّك عنك، بانصباغ طرفيه بصبغة وهي الوحدة المحضة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البَقَرَة: الآية 138].

إذا علم أن حصول المحبّة إنما هو في الاشتغال باسمه، فاعلم أنّ أفضل الأذكار ذكر لا إله إلّا الله؛ إذ هذه الكلمة مُرَكّبة من النفي والإثبات، والحُجُب الحاصلة للعبد إنما هي بواسطة انتقاش الصور الكونيّة في القلب، وفي هذا الانتقاش إثبات الغير ونفي الحقّ، فلا يحصل القُرْب إلّا برفع الحجاب، وذلك بإثبات الحقّ ونَفْي الغير كما هو المفهوم من هذه الكلمة الطيّبة.

فالمبتدي إذا أراد أن يشتغل بها، فليقصر أمله وليحصر حياته في النفس الذي هو فيه، وفي هذا النفس الذي تيقّنه آخر أنفاسه أن يشتغل بالذّكر المذكور، وطريقه أن ينحي عن قلبه غير الحقّ بقول لا إله، ويلاحظ الحقّ عزّ وجلّ بالمعبوديّة والمحبوبيّة في قول إلّا الله، بحيث يُضْمِر في قلبه كلّ مرّة يقولها: أنْ لا معبود إلّا الله.

ولْيَكُن اشتغاله بالذّكر مُنَزّهًا عن التّرك وتطرُّق الفتور، فإذا عرضته غفلة فليعتقد من باب التمثيل إنْ كان معه در ثمين عديم النظير، وهو الآن ضاله فيتحزن لذلك بلا ريب، كذلك يتحزّن من فوات الحالة المذكورة، وهذا التحزُّن علامة تأثّر القلب عن الذّكر.

فإذا داوم على هذه الحالة يصل إلى مقام لو ترك الذِّكر بلسانه فالقلب مشغولٌ به، ولكن لا يكتفي بذلك، بل يستوعب أوقاته للاشتغال به على القاعدة المُقَرّرة النقشبندية من إلصاق اللسان بالحَنَك الأعلى وحبس النَّفس في السُّرّة ورعاية الحركات الثلاث مبتدئًا من السُّرّة ومنتهيًا إلى القلب والحركة الوسطى إلى المنكب الأيمن في النَّفْي والإثبات إلى أن يصل مرتبة يغلب ذكر الحقّ على سائر الأشياء.

ويداوم على الذِّكر حتى يتدرج إلى انفراد حقيقة القلب بالمذكور لاستيلاء سلطان المحبّة عليه، فلا يبقى في القلب محبّة الغير، فيتحقّق تعلُّقه بالحقّ، فيستوي على عرشه الأعظم متكلّمًا سميعًا بصيرًا مريدًا قديرًا، وحصول هذه السعادة للقلب إنما هو لأن الله تعالى خلق القلب بحيث ما يمكنه إلّا أن يكون متعلقًا بشيءٍ، فإذا انقطع تعلّقه عن الغير بالطريق المذكور لم يَبْقَ إلّا أنه يتعلق بالحقّ سبحانه، أراد العبد أو لم يُرِدْ.

وفي هذه المرتبة يصير الذِّكْر صفة ذاتية للقلب، وحقيقة الذِّكر التي هي مُنَزّهة عن الحرف والصوت تتحد مع جوهر القلب المُعَبّر عنه بالنكتة الذاتية، فيحيط الحبيب بفضاء القلب بعد إحاطة ذكره بالفضاء المذكور، وشتّان ما بين الإحاطتين، فإن إحاطة الحبيب بفضاء القلب إنما هي نتيجة المحبّة المُفْرِطة المسمّاة بالعشق، فيترقّى من هذا المقام إلى أن يفنى الوجود المَوْهوم في الوجود الحقيقي، فيصير الذّاكر عين المذكور، وتتبدّل الذاكرية بالمذكورية، فيظهر للذاكر حقيقة قولهم: لا يذكر الله إلّا الله، وإذا حُكِمَ بفناء وجوده المَوْهوم فَيُحْكم بفناء جميع الأشياء الموهومة أيضًا، فيتجلّى له قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: الآية 88]، ويكشف جمال قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية 16] عن وجهه براقع الاستتار، فيكون موحّدًا حقيقيًّا؛ كما قال: **شعر**:

مـا وَحّـدَ الـوَاحِـد مـن وَاحِـدٍ	إذ كُـلّ مَـنْ وَحّـدَه جَـاحِـدُ
تَـوْحِـيـدُه إيّـاه تـوحـيـده	وَنَـعْـتُ مـن يَـنْـعـتـه لاحـد

ففي البيتين إشارة إلى حصول هذه المرتبة العُلْيا لخواصّ عباده في دار الدنيا، وكانت المتابعة سبب حصول هذه المرتبة العَليّة، فمن أراد هذا

التحصيل، فليجالِسْ من يُوافق ظاهره الشريعة المحمّدية وباطنه بواسطة المتابعة في المراتب المذكورة مُظْهرًا للكمالات؛ إذ القلب مَجْبول على التأثر من الجليس، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ؛ بحيث لو جلس أحد مع محزون يتأثر من حُزْنه، وإذا جلس مع مسرور يتأثّر من مسرّته، وإن جالسهما يتمكّن فيه الصفتان، وهذا من كمال قابلية القلب، ولولا هذه القابلية لما حصلت له الكمالات المذكورة، فمن جالس هذه الطائفة يتأثر باطنه عن باطنهم، فيميل قلبه إلى الحقّ جلّ وعلا، وبمقدار مَيْله ينقطع عمّا سواه، وبمقدار انقطاعه يزيد المَيْل، فازدياد الميل سبب ازدياد الانقطاع، وازدياد الانقطاع سببٌ لميل آخر وهلمّ جرًّا، إلى أن لا يبقى له ميل إلى الغير، وربما يحصل هذا الحال لبعض أرباب القابلية في صحبة هذه الطائفة بنظرة واحدة، فينقطع قلبه عن غير الله ويتوجّه بكلّية قلبه إلى ربّه ومولاه، وهذا هو الوصول في مرتبة من المراتب، ولكن الثبات على هذه الحالة مشكل لا يعرفه إلّا أرباب معاملة القلب.

وقد تحصل هذه السعادة للسالك في صُحْبة أهل الله وما يشعر بها لضعف استعداده والثّبات عليه مَنُوط بدوام الصحبة وحفظ شرائطها وآدابها ظاهرًا وباطنًا، فإنْ تَرَك أدبًا من تلك الآداب بَعُد عن قلوبهم وسقط أعْينهم، فلا يبقى له تلك الحالة التي فاضت على قلبه بواسطتهم لانتفاء الرابطة بينه وبينهم، ورأينا كثيرًا من الناس حصل لهم التأثر التامّ من صحبة هذه الطائفة، فما قدَرُوا على رعاية الآداب، فزال الذوق المذكور. **شعر**:

عـنـايـة أهـل الله لـولا تـواتـر
على الخَلْق لَاسْوَدّت صحائفهم وِزْرا
ولـكـنّـهـم أهـلٌ لـكـل جـمـيـلة
فـيَـعْـفُـون عـنّـا ما نـقـول لـهـم عُـذْرا

جعلنا الله ممّن سبقت لهم العناية، فلا تضرّهم كثرة الجرم والجناية، ووفّقنا لقبول الصّدق من قائله ودرّ الحقّ إلى سائله، وذوّقنا رحيق التحقيق من كؤوس التوفيق، فلا نشرد عن كلام أهل الله، بل نستقبله بالصّدق والتصديق، فطوبى لمن كانت قابليّته قابلة لقبول الهداية مثل الصّدّيق، فينفق لله ما عنده من المال، ولا

يخشى من ذي العرش الفاقة والإقلال، وروي أن النبيّ ﷺ لما أمَرَ بإنفاق الأموال أنفق أبو بكر رضي الله عنه جميع ماله، فجاء إلى رسول الله ﷺ وعليه كساء مربوط طرفاه بشوكة النخل، فسأله النبيّ عليه السلام: «**ما ادّخرت لعيالك**»(1)؟ قال: الله ورسوله، ثم أتى جبريل في زيّ الصِّدِّيق إلى رسول الله ﷺ، وقال: إن الله أمر أهل السمٰوات كلّها أن يوافقوا أبا بكر في زيّه كرامة له(2)، اللّهمّ وفّقنا وسائر المسلمين لموافقته، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ثم الحمد لله على الإتمام والصلاة والسلام الأكملان على خير الأنام، وآله وصحبه البَرَرة الكرام.

تمّت الفقرات

للشاذلي قُدّس سرّه: اللّهمّ أعِنّي على فَرْش أمْنِك بمَنّك، واحْرُسني بحارس حِفْظك وصَوْنك، ورَدّني برداء الهَيْبة، وأجْلِسني على سرير العَظَمة، وتوّجني بتاج البهاء، وانْشُر عليّ لواء العِزّ واملأ باطني خَشْية ورحمةً وظاهري عَظَمة وهَيْبة، ومَكّنّي ناصية كل جبّار عنيد وشيطان مَريد، واعْصِمْني وأيّدني في القول والعمل برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

مَن قال بقلبه ولسانه: دستور يا أصحاب الوقت أدرس أو أعِظ بحكم النيابة عنكم أمِن عن ارتجاج الكلام عليه في ذلك المجلس، وأمدّوه كلّهم بالعلوم والمعارف، شَعَر أو لم يَشْعر.

قصيدة للشيخ ناصر الدين المشهور بابن بنت المَيْلق رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

مَـنْ ذاق طـعـم شـراب الـقـوم يـدريـه
ومَـنْ دَراه غَـدًا بـالـروح يـشـريـه

---

(1) رواه أحمد في فضائل الصحابة، حديث رقم (527) [1/ 360].

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لديّ من مصادر ومراجع.

ولو تعرض أرواحًا وجاد بها
في كل طرفة عين لا يساويه
وقطرة منه تكفي الخَلْق لو طَعِمُوا
فيشطحون على الأكْوان بالتِّيْه
وذو الصَّبابة لو يُسْقَى عدد الأنـ
فاس والكَوْن كأسًا ليس يرويه
يروي ويظمأ ما ينفكّ شاربه
يَصْحُو ويَسْكر والمحبوب يسقيه
في ريِّه ظمأ والصَّحو يُسكِرُهُ
والوَجْدُ يُظْهِره طَوْرًا ويخفيه
يبدو لهُ السرّ من آفاق وجهته
وليس إلا لَهُ منه تبدّيه
له الشهادة غَيْبٌ والغُيُوب له
شهادة والفناءُ المَحْضُ يُبْقِيه
له لدى الجَمْع فُرَقٌ يَسْتضيءُ به
كالجمع في فرقه ما زال يُلْقيه
يَدْنُو ويَعْلُو ويَرْنُو وهو مُصطلم
في الحالتين بتمييز وتوليه
له الوجودات أضْحَتْ طَوْع قُدْرته
وما يَشاء مِنَ الأطْوار يأتيه
للقوم سرٌّ مع المحبوب ليس له
حدٌّ وليس سوى المحبوب يُحْصِيه
به تصرّفهم في الكائنات فما
يشاء شاؤوا وما شاؤوه يقضيه
إن كنت تَعْجَبُ من هذا فلا عَجَبٌ
لله في الكَوْن أسرارٌ تُرَى فيه

لا شَيْء في الكَوْن إلّا وهو ذو أثر
فما المُؤثر غيرَ الله قاضيه
ليس التضاد مَناعًا لقُدْرته
من حيث قُدْرته تأتي تعاليه
وإنما من وجوه الحادثات له
تمانعٌ في محل الظلّ يَخويه
وللفقير وجوهٌ ليس يَحْصُرَها
عدٌ وكل وجود فهو واديه
لو كنت تدري وجود العبد كُنْت تَرى
فيه الكمال كما النقصان تَنْفيه
والعبد هذا هو الحُرّ الذي حصلت
له الخلافة جَلّ الله مُعْطِيه
أوصافه ظَهَرَتْ مِنْ وصف مُبْدِعِهِ
وكلُ مظهره يُبْدي تجلّيه
إذا رؤي ذكر المَولى برؤيته
وفاز بالسَّعْد والتقريب رَائِيه
عبدٌ عليه سِمَاتُ العِزّ لَائِحَةٌ
وخِلْعَةُ العِزّ والتحكيم عاليه
إن كُنْتَ تَقْصِد أن تَحْظَى بصُحْبته
فاسلك على سُنَن طابت مساعيه
أخْلِص وِدَادَك صِدْقًا في مَحَبّته
والْزَم ثرى بابه واعْكُف بناديه
واستغرق العمر في آداب صُحْبته
وحَصّل الدُرّ والياقوت مِنْ فِيه
وابْذُل فؤادًا وبالِغْ في أوامره
إلى الوفاق وبادِرْ في مَرَاضِيه

واحْذَر بِجَهْدِك أن تأتي ولو خطأً
ما لا يُحِبّ وبَاعِدْ عَنْ مَنَاهِيه
وكُنْ مُحِبّ مُحِبِّيه وناصِرِهم
والْزَمْ عداوةَ من أضحى يُعَادِيه
واعْلَم يقينًا بأن الله ناصِرَه
إن لم يكن ناصرًا فالله يَكْفِيه
وأنْزِل الشيخ في أعلى منازله
واجْعَلْه قبلة تعظيم وتنزيه
ولست تفعل هذا إن ظَنَنْت به
نَقْصًا ولا خَلَلاً فيما يُعانِيه
واتْرُك مُرادك واسْتَسْلِم له أبَدًا
وكُنْ كَمَيْتٍ مُخَلًّى في أياديه
اعْدم وُجُودك لا تَشْهَدْ له أثرًا
ودَعْه يَهْدمه طَوْرًا ويَبْنِيه
متى رأيتك شيئًا كُنْتَ مُحْتَجِبًا
بِرُؤْيَة الشيء عمَّا أنت ناويه
ولا ترى أبدًا عنه غِنًى فمتى
رأيت عنه غِنًى تخشى تَنَاسِيه
إنّ اعتقادك إنْ لم تأتِ غايته
فيه فَيُوشك أن تُخْفَى مَبَادِيه
وغايَةُ الأمر فيه أن تَراه على
نَهْجِ الكَمَال وأن الله هادِيه
ومِنْ إمارة هذا أن تزول ما
عليك أشكل إظْهارًا لِخافِيه
والمَرْءُ أن يعتقد شيئًا وليس كما
يَظُنُّه لم يَخِبْ فالله مُعْطِيه

وليس يَنْفَعُ قُطْبُ الوقت ذا خَلَلٍ
في الاعتقاد ولا مَنْ لا يواليه
إلّا إذا سَبَقَتْ للعبد سابقةٌ
يعودُ من بعد هذا مِنْ مَوَالِيه
ونظرةٌ منه إنْ صحّت إليه على
سبيل ودّ بإذن الله تُغْنِيه
والنّاس عبدان مَجْذُوبٌ وسالكُ ما
دُعِي إليه بتعليمٍ وتَنْبيه
والجَذْب أَخْذَةُ عَبْدٍ بَغْتَةً بِيَدي
عناية نحو أمْر ليس يَنْوِيه
هو المُراد ومخطوب العناية لا
يَحِسّ كلفةَ تكليفٍ تلاقيه
طَوْرًا يُرَدُّ عليه الحِسُّ تَكْمِلة
له فيقصد ما قد كان ناويه
تراه يَعْبُدُ لا يَلْوِي على شُغُلٍ
سِوَى العِبادة يَسْتَحْلي تفانيه
وقد يَغِيبُ عن الإحساس مُخْتَطَفًا
وذو العناية حفظ الحقّ يَحْمِيه
ترى الحقائق تبدو منه في نَسَقٍ
مع الكشوف لأن الله يلقيه
وذو السّلوك تراه في بدايته
يُجَاهِد النّفس ذا رَغْيٍ لباقيه
يمشي على نهج أهل الصّدق ملتزمًا
شروطهم خائفًا مما يُرجّيه
كم من مُريدٍ قَضَى ما نال بُغْيَته
حقّ القضاء عليه في تقاضيه

وكم مريد وَنَى من بَعْدِ عَزْمَتِهِ
يَهْوِي به الحظ في أهوى مَهَاوِيه
والجَذْبُ إنْ جاءَ مِنْ بعدِ السُّلوكِ له
فضلٌ على الجَذْب مما السعي تاليه
فالجَذْبُ هذا الذي التفضيل فيه هو الـ
ـجذب الذي ظهرت حِسًّا بواديه
وفي الحقيقة لولا الجَذْب ما سُلِكَتْ
طريقُ حقٍّ ولا رُئِيَتْ مَرَائِيهِ
لولا العِنايةُ والتَّخْصيص قد سَبَقا
في دَعْوَةِ العبد ما قامت دَعَاوِيهِ
إنَّ المُرِيد مُرَاد والمُحِبّ هو الـ
ـمحبوب فاستمل هذا من أماليه
إنْ كان يَرْضاك عَبْدًا أنت تَعْبُدُهُ
وإنْ دَعَاكَ مع التَّمْكِينِ تأتيه
ويفْتَح الباب إكرامًا على عَجَلٍ
ويرْفَعُ الحُجُب كَشْفًا عن تَدَانِيهِ
وثَمّ تَعْرِف ما قد كُنْتَ تَجْهَلُهُ
ممّا عَنِ الحَضْرِ قد جُلِّتْ مَعَانِيهِ
وتَرْتَوِي من شراب الأُنس صافية
يا سَعْدَ مَنْ يَأْتِ مملوءًا بصافِيهِ
وَصَلِّ يا ربّ ما غَنَّتْ مُطَوَّقةٌ
على النَّبِيِّ صلاة مِنْكَ تُرْضِيه

الرحمة الهابطة
في تحقيق الرابطة